الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة الإسراء

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

29

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٢٠١٤٧٠

الطبعة الأولى

شعبان ١٣٩٦ هـ

أغسطس ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ت : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الاسراء

مقـدمة :

تتناول سورة الإسراء ، كسورة مكية ، بعضا من الموضوعات التي تعني بها السور المكية على وجه العموم . ثم كسورة تشير إلى قصة الإسراء بصفة خاصة ، تتناول مايتعلق برحلة الرسول محمد عليه السلام إلى بيت المقدس.

● ولذا نجدها في بدايتها تذكر هذه الرحلة ،ووقوف المصطفى عليه السلام هناك على تاريخ الرسالة الإلهيه ، وبالأخص على تجربة موسى مع بني إسرائيل ، وإعلان ريادة الرسول العربي صلوات الله عليه وسلامه ، وبالقرآن : للرسالة الإلهية في جوهرها ، في الآيات : ١ ، ٢ ، ٨

● كما نجدها بعد ذلك تذكر من موضوعات السور المكية فتذكر :

أولا : وحدة الألوهية ، في الآيات : ٢،٢٢،٢٣،٣١،٣٩،٤٢،٥٦ .

ثانيا : الإنسان وطبيعته ، وخصائص هذه الطبيعة في اتجاه الكفر والإيمان، ومهمة القرآن بالنسبة للإنسان ، في الآيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

ثالثا : تذكر بعض التحديات والاتهامات التي توجه إلى القرآن ، وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام وترد عليها ، في الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ .

والتحديات التي تذكرها السورة هنا :

٤

(١) إنكار وحدة الألوهية .

(٢) ادعاء الشرك .

(٣) إنكار البعث واليوم الآخر .

(٤) نسبة الأولاد — وبالأخص الإناث — إلى الله ، تنزه عن ذلك ، سبحانه .

ومن التهم التى رصدتها هذه السورة وكان يوجهها الماديون المكيون إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام : تهمة أنه غير طبيعى فى تصوره وتفكيره : تهمة أنه مسحور ، عندما قام يدعو إلى وحدة الألوهية ، ونفى الشرك فيها .

فطابع الوحى المكى واضح إذن فى هذه السورة .

★★★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَا إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

« يروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بنت أبى طالب ، بعد صلاة العشاء : فأسرى به ، ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانىء ، وقال : « مثل لى النبيون فصليت بهم » .

واختلف فى وقت الإسراء . فقيل كان قبل الهجرة من مكة إلى المدينة ، بسنة ، وقيل : إنه كان قبل البعث . كما اختلف فى نوعيته : هل كان بالروح دون الجسد ؟ وهذا ما ينقل عن عائشة رضى الله عنها . وقيل كان فى المنام ، رؤيا رآها .

وهناك حديث آخر ينقل عن المصطفى صلوات الله عليه ، وهو قوله : « لا تشد الرحال إلا لثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » (وهو مسجد الرسول بالمدينة) .

وبالوقوف عند هذا الحديث قليلا يتضح : أن رسالة القرآن — فى جملته — ترتبط بذكريات لهذه المساجد الثلاثة .

فما فى القرآن من وحى مكى — وهو الوحى الخاص بمواجهة الوثنية المادية — يتصل بالمسجد الحرام بمكة ، وكأن زيارة المسجد الحرام بمكة ، وشد الرحال إليه ، تعيد إلى ذاكرة المؤمن بالله وبرسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام : مواجهة القرآن للمادية أو الجاهلية ، أو الشرك والوثنية .

وما فى القرآن من وحى مدنى : يتصل بمسجد المدينة وكأن زيارة المسجد النبوى بالمدينة تذكر المؤمن بالله وبرسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام : بالأسس التى قام عليها نظام المجتمع الإسلامى .

وما فى الوحى المدنى فى القرآن ، وبالأخص كثير مما جاء فى سورة البقرة وآل عمران، والمائدة ، يشير إلى صلة المسجد الأقصى بكنعان . وكأن زيارة المسجد الأقصى توحى للمؤمن بالله وبرسالته عليه السلام بمكانة القرآن ووضعه من الكتب السماوية السابقة . وهى مكانة الريادة ، ووضع المصحح لما طرأ عليها من تحريف ، أو تصحيف ، أو حذف وإخفاء .

وهكذا :

(١) المسجد الحرام بمكة ترتبط به مواجهة المادية ومقاومتها ، على نحو ما جاءت به السور المكية .

(٢) والمسجد النبوى بالمدينة يرتبط به قيام المجتمع الإسلامى وأسس نظامه .

(٣) والمسجد الأقصى يرتبط به تصحيح ما وقع فى الكتب السابقة من اختلاف وأخطاء ، والفصل فيما عليه أهل الكتاب عند نزول القرآن . كما يخبر الله فى قوله تعالى : **« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم »**[١] .

• وقد عايش الرسول عليه الصلاة و السلام المسجد الحرام بمكة ، والمسجد النبوى بالمدينة ، وأسرى به إلى المسجد الأقصى بكنعان ، وهناك أم النبيين

---

(١) النمل : ٧٦ – ٧٨ .

فى الصلاة . كما ينقل ذلك فى الحديث السابق المروى عن أم هانىء فى قوله ، وقال : « مثل لى النبيون فصليت بهم » . وكانت بذلك إمامته للنبيين السابقين عليه — وبالأخص موسى ، وعيسى — إعلاما بمركز رسالته عليه السلام . وهو مركز المصحح لما وقع من تحريف فى الرسالات السابقة عليه .

فالإسراء من مكة إلى كنعان ، أو نقلته — فى أية صورة — : مادية ، أو روحية ، أو منامية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، هو لإحاطته عليه السلام بجوانب رسالته الثلاثة فى القرآن ، إذ بالاسراء يتم إطلاعه على المكان الثالث الذى يرتبط به الجانب الرئيسى الثالث من جوانب رسالة القرآن ، وهو جانب تصحيح الأخطاء فى الرسالات السابقة على القرآن عند نزول القرآن . والمكان الثالث هو المسجد الأقصى .

ويكاد يكون الإسراء — فى منطق الانسان عند تقييم دعوة القرآن — ضرورة للوقوف على تاريخ الرسالة الإلهية وتسجيلاته المادية التى ترتبط بالمكان الذى توالت عليه الرسالات السابقة ، وهو المسجد الأقصى بكنعان. وهذا يزيد من انطباعات صاحب الرحلة بجوانب الرسالة . والإسراء من أجل ذلك : فضل من الله على رسوله ، ومنة خاصة به ، مما يدل على أن رسالة القرآن كانت ختام الرسالات السابقة . إذ هى الآن تقدم إحاطة شاملة وإظهاراً محدداً للرسالة الإلهية : مامضى منها ، وما هو قائم وباق إلى يوم البعث . فى الوقت الذى تقدم فيه كذلك : كيف يواجه الإنسان الماديه .. وكيف يقيم الإنسان مجتمعا إنسانياً تغلب عليه الروابط الإنسانية .. وكيف يواجه الإنسان انحراف السابقين فى عرض رسالة الله للإنسان فى عهود الرسالة المختلفة .

وهكذا : هناك صلة وثيقة بين المسجد الأقصى والعرض الصحيح لما فى الكتب السماوية السابقة .. وكذلك بين المسجد الحرام بالمدينة والأصول

الإلهية فى المجتمع الانسانى .. وأخيراً بين المسجد الحرام بمكة ومظاهر المادية ووثنية المادية ، ووثنية الشرك التى تتكرر عند ما تطغى مظاهر الجاهلية ، والبعد عن الترابط الانسانى فى العلاقات بين الناس وتغليب المنفعة المادية وحدها فى هذه العلاقات .

والمسجد الأقصى إذن جزء لا يتجزأ فى رسالة القرآن والايمان به . وزيارته من أجل تذكر جوانب الرسالة فى القرآن الكريم ، مساوقة لزيارة المسجد الحرام بمكة ، والمسجد الآخر بالمدينة .

وربط هذه المساجد الثلاثة برسالة القرآن وجوانبها الرئيسية يرجح أن الإسراء بالرسول عليه السلام كان بعد البعثة وليس قبلها .

أما ترجيح أن الاسراء كان بالبدن أو بالروح ، أو فى الرؤيا ، فليست له دلالة خاصة ، طالما أن المقصود هو أن يقف المصطفى عليه السلام على مكان العبادة الذى ارتبطت به ذكريات كثيرة من الأنبياء والرسل ، أن يلتقى بهم فى صلاة هو فيها إمامها فى هذا المكان التاريخى ، وهو المسجد الأقصى .

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله (أى تنزه المولى سبحانه جل جلاله عن الشرك وتعدد الأنداد . فقد نقل عبده المصطفى صلوات الله عليه فى رحلة ليلية من مكة إلى بيت المقدس ، وذهب به من المسجد الحرام الذى ارتبطت به رسالة إبراهيم، وابنه إسماعيل،من قبل على المدى البعيد .. إلى المسجد الأقصى وكنعان،وقد ارتبطت به رسالة موسى ومن بعده عيسى ، فى المدى القريب .

وإذا كانت الكعبة فى المسجد الحرام بمكة أقدم بيت لله وضع للناس ، وجعلت مكة لذلك حرما آمنا للناس جميعاً ، فإن بيت المقدس يقع فى أرض مباركة جعلها الله مهجرا لكثير من الرسل عند ما اضطهدوا من أعدائهم ،

وأراد الله إنجاءهم ، فهى أرض مباركة جعلها الله أرض سلام واطمئنان كذلك .

والمسجد الأقصى هو بالمفهوم العام يقصد به مكان عبادة الله ، تؤدى فيه العبادة حسب هداية الله فى رسالته . ولم تكن رسالة فى أى زمن ، وعلى يد أى رسول : سوى الإسلام : **« إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله . فإن الله سريع الحساب »**(١) .

والإسلام يقوم أساساً فى كل عهد من عهود الرسالة على الإيمان بوحدة الألوهية) لنريه من آياتنا (واستهدفت رحلة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس أن يطلع على بعض آيات الله .. أن يطلع على المسجد الأقصى الذى تركزت فيه معالم الرسالة الإلهية فى تاريخها الطويل ، فى عهود الرسل من أولاد يعقوب ، بعد أن باشر هو — المصطفى عليه السلام — دعوته فى مكان إبراهيم ، وولده إسماعيل . . استهدفت أن يلتقى برسل أولاد يعقوب ، وبالأخص : موسى وعيسى ، وأن يكون مكانه بينهم هو مكان الصدارة والإمامة .

وبالتقاء المسجد الحرام بمكة بالمسجد الأقصى بكنعان فى رسالة محمد بن عبد الله تكون الإحاطة والشمول طابع القرآن فى رسالته . والقرآن بذلك كتاب الله فى كل مايتصل بالبشرية) إنه هو السميع البصير (والله سبحانه اذ يسرى بعبده المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المسجد الأقصى من مكة ، ليسمع عقب ذلك ما سيقال فى شأن هذه الرحلة الليلية من أعدائه المكيين وغيرهم ، إذ حتما سيشكك أعداؤه أو يكذبونه فيما ينقل لهم عن الآيات التى

---

(١) آل عمران ، ١٩

أراها الله إياه هناك . ولذا عندما قام عليه الصلاة والسلام — بعد أن روى لأم هانىء قصة الإسراء — ليخرج إلى المسجد ، تتشبث بثوبه : فقال عليه الصلاة والسلام : مالك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال عليه الصلاة والسلام . « وإن كذبونى » . والله سبحانه كذلك عند ما يقدر هذه الرحلة لرسوله الأمى الكريم يعلم تمام العلم ويبصر كل جوانب الطريق الذى يوصل إلى الهداية ، وإلى نجاح رسوله فى دعوته . فالإسراء حدث له آثاره البعيدة المدى على البشرية كلها .. له آثاره فى الحجة ضد الزعماء الذين أرادوا أن تمتد زعامتهم على حساب بقاء التحريف فى رسالة الله ، بعد أن يدعوا أنهم حملتها ، وأهل الأمانة لها . وهم من يسمون بأهل الكتاب) .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى
وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

وتريد السورة أن تذكر الآن طرفاً من التجربة التى مرت ببنى إسرائيل فى موقفهم من دعوة موسى بعد أن نجاهم الله جميعاً من آل فرعون وملئه ،

وأنعم عليهم بالهجرة إلى كنعان . فقد دعاهم موسى إلى وحدة الألوهية وإلى ترك المادية والجاهلية . . أى إلى ترك كل ما يتدلى بالانسان عن مستوى الإنسانية فى علاقة الناس بعضهم ببعض ، وإيثار النفعية والانتهازية فيها ، ولكن اتجاه المادية كان يغلب على بنى إسرائيل ، إن تضعف بينهم فترة قصيرة من الزمن لم يلبثوا أن يعودوا إليه مرة أخرى : « **وإذ قال موسى لقومه يا قوم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم . إنه هو التواب الرحيم. وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** »(١) .. يسجل عليهم القرآن رجوعهم إلى الاتجاه المادى ، فور أن نجاهم الله من فرعون وهم فى طريقهم إلى كنعان ، ولم يستقروا فيها بعد . فتحولوا إلى عبادة الوثن ، وأنكروا كل دليل على وحدانية الله ، عدا أن يروه جهرة وعيانا .

وهى تجربة تعطى الدليل مرة أخرى على أن اتجاه المادية متأصل فى نفوسهم حتى بعد أن أوقفهم موسى عليه السلام أخيراً ، فى نهاية سلسلة الرسل إليهم ، على كتاب الله وهدايته : « **وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون** »(٢) .

فقد كانت هداية الله فى رسالة موسى فرقا واضحا مابين الحق والباطل. والإنسانى والمادى ، لا لبس فيها إطلاقاً بينهما : « وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل : أن لا تتخذوا من دونى وكيلا (تقص سورة الاسراء : أن الكتاب الذى أنزل على موسى لبنى إسرائيل كان

---

(١) البقرة : ٥٤ و ٥٥ (٢) البقرة : ٥٣

كتاب توجيه وهداية لهم نحو وحدة الألوهية ، ولترك ما عدا الله ، مما يظن أن يتخذ نداً ورباً وعوضاً وبديلا عنه ورباً توكل إليه الأمور) أن لا تتخذوا من دونى وكيلا . (ولم تذكر السورة هنا من كتاب موسى وهو التوراة سوى الدعوة إلى التوحيد . إذ قضية الوحدة فى الألوهية بوجه عام هى الأساس فى التحول من مستوى المادية والجاهلية إلى المستوى الانسانى والخصائص الانسانية فى الترابط ، وفى العلاقات عامة بين الناس جميعاً . وهذا التحول هو دعوة الرسالة الالهية التى يأتى بها أى رسول من قبل الله تعالى . لأن دعوة الوثنية المادية أو الجاهلية هى دعوة الانسان لعبادة ما يتوهم أن يحقق له المصلحة الشخصية ، أو يدفع عنه أذى وضرراً شخصياً وما يتوهم فيه أن يحقق اليوم ، مصلحة ، أو يدفع مضرة غدا . وعندئذ يضطر العابد أن يتجه بعبادته إلى موجود آخر يعبده توهماً منه كذلك : أن تتحقق له بعبادته مصلحة ، أو تحول هذه العبادة إياه دون ضرر ذاتى له . وهذا التنقل من معبود إلى معبود يجعل الانسان العابد عندئذ عبداً لمنفعته الذاتية . والمنفعة الذاتية لأى إنسان هى التعبير عن أنانيته التى تتمثل فى الهوى والشهوة . ثم تورط بنى إسرائيل فى مجال الأنانية أو مجال المصالح الذاتية والمنافع الشخصية بصفة خاصة هو الذى يجعلهم لا يفيقون من اتباع المادية ، والعزوف عن دعوة التوحيد . ولذا كان أشد ما أغضب موسى — وقومه فى طريق الهجرة من مصر إلى كنعان ، بعد أن أحبط الله تتبع فرعون وملئه لهم — أن عاد قومه فى الطريق إلى عبادة العجل ، على إثر إيمانهم بالتوحيد بمصر ، وانضمامهم إلى موسى ، والذى هو أساس دعوته لهم) ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً (وكان الأجدر ببنى إسرائيل . ألا يغلب عليهم الاتجاه المادى فى حياتهم . إذ أنهم من نسل من آمن بنوح وركبوا

ه سفينته حتى استوت على الجودى ، بعد ماناداه ربه منقذاً إياه ومن معه من الطوفان : « **قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** » (١) . وقد جاء فى سورة مريم امتنان الله على بنى اسرائيل بكونهم من ذرية نوح فى قوله تعالى : « **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا . واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا . واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكاناعليا . أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** » (٢) .

كان الأجدر ألا يغلب عليهم الاتجاه المادى ، وأن يكونوا مثلا للهداية والخضوع : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

ولكنهم كانوا من الفريق الآخر — وهو من نسل من آمن بنوح أيضاً — وهو ذلك الفريق الذى يحب الاستمتاع بمتع هذه الحياة المادية ، ويحرص كل الحرص على اقتنائها منصرفاً تماماً عن الإيمان بالآخرة ، ومتتبعاً فى سلوكه مايحقق له النفع المادى ، ولو كان تحقيقه على حساب الآخرين . وهذا الفريق الآخر هو ماعناه قوله تعالى فى آية هود السابقة : « وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب إليم » . وعقابهم بالعذاب هو من

---

(١) هود : ٤٨ . (٢) مريم : ٥١ — ٥٨ .

أجل جاهليتهم وحرصهم على الدنيا وحدها منكرين الآخرة والإيمان بالله وحده) . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب : لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً (أى حكم الله سبحانه وتعالى فى سجل المخلوقات أن ماديتهم فى الحياة وتعلقهم بها ستحملهم على الطغيان والاستعلاء والصلف وأن طغيانهم سيكون سببا فى عبثهم وفسادهم فى الأرض جميعاً ، وفى طردهم كذلك من كنعان التى استقروا فيها ، إلى خارجها ، على يد من يذيقهم العذاب ، ويشعرهم بالمذلة والهوان ، ويقوض لهم مساكنهم وأماكن العبادة لديهم ، وفى مقدمتها هيكل سليمان . وأن هذا العقاب بالطرد سيقع لهم مرتين ، وأنه سيتكرر كلما أعطيت لهم فرصة الهداية وانحرفوا عنها الى المادية والطغيان من جديد : «وإن عدتم عدنا» . ويشاء الله أن يجعل سلوك بنى إسرائيل تحت تأثير طغيان المادية مثلا عملياً واقعيا للناس جميعا فى التاريخ البشرى ، وأن يربط فى حياتهم بين طغيان المادية من جانب ، والمذلة والهوان والطرد والتشتيت للطغاة كعقاب لهم من جانب آخر . وما تشير إليه الآية هنا من الربط بين الجانبين ، وأنه وقع فى تاريخهم بعد سكنى كنعان مرتين يفيد أن مجتمع بنى إسرائيل كمجتمع بشرى وضع أمام هذه التجربة مرتين : تتاح له فرصة السلام والسلوك الإنسانى باتباع هداية الله فى تجنب الجرائم ، وسفك الدماء ، وعدم الاستعلاء والصلف ، فينجرف إلى المادية وإنكار القيم الإنسانية فى حياة الناس بعضهم ببعض ، ثم إلى الطغيان بالقوة : قوة المال ، أو قوة المؤامرة والمكيدة ، أو القوة العصبية والترابط على أساس شعوبى .) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد : فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا (وعندما جاء قضاء الله بعقاب بنى إسرائيل على طغيانهم وعبثهم فى الأرض فى المرة الأولى سلط الله عليهم البابليين فى عهد بختنصر فى السنة السابعة والتسعين بعد الخمسمائة قبل الميلاد . وكانوا

أصحاب إمبراطورية قديمة فى جنوب غرب آسيا ، يعتزون بالقوة ، فدخلوا كنعان وعاثوا فيها فساداً ، وتنقلوا بين ديارهم بالقتل وسفك الدماء ، واضطر بنوا إسرائيل الى الوقوع فى الأسر . وما وقع منهم فى الأسر : عدد لا يستهان به ، وسيق الأسرى جميعهم إلى بلاد الإمبراطورية للعمل الشاق والإذلال فى الحياة هناك . وفعلا تم وعد الله بعقابهم هذه المرة) . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها (وبعد هذا العقاب الذى نال من نفوسكم بالمذلة ، ومن سكناكم بالطرد من دياركم ، ومن قوتكم بالقتل والإفناء والجوع والحرمان : أعاد الله لكم الحياة الطبيعية لكم ، ففك أسركم بعد قتل داود جالوت ، وتغلب الفرس على البابليين ، وذهب هؤلاء وهؤلاء فى إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، وعدتم حوالى السنة العشرين بعد الخمسمائة قبل الميلاد إلى كنعان ، وجددتم معبدكم ودياركم ، وأمدكم سبحانه بالأموال ، وبالقوة البشرية فكثر أبناؤكم ، وبذلك أصبحتم قوة واضحة ، ووضعكم الله جل جلاله الآن فى مواجهة اختبار ثان إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . (وبنو إسرائيل يومذاك : إما أن يشكروا الله على نعمائه بالاستقامة والبعد عن الاتجاه المادى فى حياتهم والأخذ بالروابط الانسانية فى علاقة بعضهم ببعض أولا ، وإما أن يواجهوا عقاب الله ، ولكن على نحو أشد وأعمق) فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا (ولكن أمام هذا الاختبار الثانى لم يحسنوا اتباع هداية الله ، وبالتالى لم يحسنوا صنعا لأنفسهم ، فعندما أرسل إليهم عيسى بن مريم عليه السلام واجهوه بالمعارضة والانكار لرسالته ، وتمادوا فى غيهم وصلفهم من جديد ، وحولوا نعمة الله عليهم بالمال والقوة إلى : الاستعلاء والطغيان

والعبث والفساد . وآنئذ جاء عقاب الله لهم للمرة الثانية ، وتسلط عليهم « تيتوس » الرومانى وشوه وجوههم بأن بدل معالم حياتهم ، وطاردهم وطردهم إلى خارج كنعان ، وخرب هيكلهم تخريبا تاما فى السنة السبعين بعد الميلاد ، ودمر كل ماتمكن من تدميره من مرافق حياتهم . وهكذا كان البابليون أولا ، وكان الرومان ثانيا ، هم الذين باشروا عقاب بنى إسرائيل بإذن الله على طغيانهم واستعلائهم وعبثهم وفسادهم فى الارض) . عسى ربكم أن يرحمكم (والآن بعد عقاب الله لبنى إسرائيل على يد الرومان ، يمكن أن يتوب الله عليهم ، ويستظلوا برحمته من جديد إن هم سلكوا طريق الهدايه الالهية ، وليس ذلك الطريق هو الانتماء إلى اليهودية والتكتل على أساس من معتقداتها ، بقدر ماهو اتباع عملى لجوهر الرسالة الالهية . وجوهر الرسالة الالهية فى كل عهد من عهود الرسل هو السلوك الانسانى بعد الابتعاد عن الجاهلية والمادية . وإذا كانت الجاهلية أو المادية تتمثل فى الاعتداء وسفك الدماء واستغلال المال ، وانتهاك الحرمات والاستعلاء بالقوة ، فإن السلوك الانسانى يتمثل فى التواد والتحاب ، والتسامح ، والتعاون والتعاطف بين الناس جميعا)وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا (ويوضح الله جل جلاله لبنى إسرائيل الآن — ولغيرهم من المجتمعات الاخرى — أن عقاب الله فى أية صورة لمجتمع ما ، مرتبط أيما ارتباط بانحرافه عن هداية الله . أو بعبارة أخرى بالعودة والرجوع إلى الجاهلية والوثنية والمادية فإما أن يسود المستوى الانسانى فى العلاقات والترابط فى المجتمع ، وعندئذ ينعم هذا المجتمع بالاطمئنان والسكنى والمودة والرحمة . وإما أن يتقلص هذا المستوى ويحل محله مستوى الانانية والمنفعية والاستغلال الجائر ، والاعتداد بالمال أوبالقوة المادية ، وآنئذ يأتى عقاب الله بالتدمير والتخريب لكل معالم المجتمع ومصادر حياته ومعيشته ، وعلى يد من لايرحم . على يد متكبر

متجبر . إذ ليس من شك أن البابليين كانوا فى أوج . عنجهيتهم يوم أن استرقوا بنى إسرائيل وحولوهم إلى عبيد فى داخل ملكهم .

وكذلك كان شأن الرومان عندما شتتوهم فهاموا على وجوههم فى الأرض وتفرقوا يخفون أمر أنفسهم عن غيرهم ممن خالفوهم وعاشوا بينهم دهرا . ومع هذا العقاب الدنيوى ، ينتظر المجتمع المنحرف فى الآخرة عقابا من نوع آخر هو عقاب جهنم يحصرون فيها ولايخرجون منها أبدا) .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

ويعيد القرآن نفسه فى رسالته إلى الناس جميعا : نفس القانون والمبدأ الذى وضحه الله جل جلاله لبنى إسرائيل من ربط الاستمتاع بالمستوى الإنسانى فى المجتمع باتباع هداية الله ، ومن إنزال العقاب بالمجتمع عند الانحراف والسقوط فى الجاهلية والوثنية المادية : « إن هذا القرآن يهدى التى هى أقوم (أى هذا القرآن يحمل فى آياته هداية الله للناس فى سلوكهم وفى علاقات بعضهم ببعض . وطريقه فى الهداية هو الطريق الأقوم والأمثل فى حياة الناس على هذه الأرض) . ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا (كما يحمل البشارة للذين يؤمنون به ويتبعون منهجه فى حياتهم . فهو يبشرهم بحياة مطمئنة . وبعلاقات إنسانية كريمة فى دنياهم ، بجانب ماينتظرهم فى الآخرة من جزاء عظيم ، يفوق ما فى الدنيا من متع ، فى نوعها ، وفى عدم تقنينها ، وفى بقائها ودوامها) . وأن الذين لايؤمنون

بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما (وبالاضافه إلى هذا وذالك فإنه يحمل أيضا الإنذار بالعقاب للماديين والجاهليين — وكنى عنهم بالذين لايؤمنون بالآخرة، لإيمانهم بالدنيا وحدها ، وبمثلها المادية دون ماعداها — ففوق ما قد يصيبهم فى دنياهم من عقاب على نحو ما أصاب مجتمع بنى إسرائيل على عهد البابليين ، والرومان : فإن عذاب الآخرة لهم أمر مقضى به فى علم الله ، وهو عذاب يفوق الوصف ، كما يفوق ثواب المؤمنين الصالحين فى آخرتهم وصف الانسان له فى دنياه) .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن
رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا
﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ
حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

وتأخذ سورة الاسراء الآن فى الكشف عن طبيعة الانسان قبل أن توجه إلى الصراط السوى ، عن طريق الإيمان بهداية الله واتباعه فى السلوك فتقول : ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولا (فتذكر أن هذه الطبيعة الإنسانية من حيث هى طبيعة إنسانية لها خصائص الغرائز والعقل معا.. هى طبيعة تميل إلى الشر ، كما تميل إلى الخير . أى لو تركت

وشأنها لفعلت الشر وباشرته ، ولفعلت أيضاً الخير وباشرته . فهى طبيعة مزدوجة فى الاتجاه تندفع إلى هذا الجانب أو ذاك فى التصرف والسلوك . ولكن مع أنها طبيعة مزدوجة – أى ذات ميل إلى الشر،وذات ميل إلى الخير – فإنها قلما تتجه فى سبيل الخير . لأنها تندفع بالغرائز ، من غير أن تحكم العقل والتروى . وبذا كان الإنسان عجولا ، غير مترو إن سلك أو تصرف . أى كان صاحب ميل إلى الشر أكثر من ميله إلى الخير . لأن المصدر الذى يقوده إلى الشر أكثر دفعاً من المصدر الآخر. والآية كأنها تقول : إن الإنسان بطبيعته يميل إلى عمل الشر ، وعمل الخير. ولكن قوة الغرائز فيه تجعله مندفعاً ، دون ترو ، وترجيح ، نحو الشر الذى يتمثل : فى الهوى والشهوة . ولو أن الإنسان بفطرته لم يكن عجولا ، أى مندفعاً لتحقيق شهواته وأهوائه ، وكان يستخدم العقل ، ويسلك طريق الحكمة ، وبذلك يتحكم عقله فى هواه وشهوته ، لما كانت هناك حاجة إلى رسالة إلهية له مدة وجوده على هذه الأرض . ولكن . . قد اختبر الله آدم وحواء وهما فى الجنة فكان عصيانهما أمر ربهما .

وقد دل عصيانهما على أن العقل فيهما الذى من أجله طلب الله من الملائكة السجود لآدم ، لم يكن ذا قوة وذا فاعلية ، بحيث يكون ذا سيادة على الغرائز ويتحكم فى ميلها إلى الشر ، أى فى الهوى والشهوة . وبالتالى دل عصيانهما على أن الإنسان عجول بفطرته ، أى مندفع لغرائزه ، ويتجه فى سبيل الشر قبل أن يسلك طريق العقل . ومن هنا لم يستطع عقل الإنسان فيه أن يكون موجها له فى غيبة الرسالة الإلهية .

وأجيال البشرية إذن كانت فى حاجة إلى هذه الرسالة التى انتهى أمرها بالرسول المصطفى عليه صلوات الله محمد بن عبد الله) : وجعلنا الليل والنهار

آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا (وطريق اتباع رسالة الله هو الإيمان بالمولى جل جلاله وبوحدته فى الألوهية . وتسوق الآية هنا دليلا على وحدة الألوهية ، هو : اختلاف الليل والنهار . . هو تجزئة الزمن وقسمته إلى قسمين ترتبط بكل قسم منهما على حدة — ثم يتوالى بعضهما إثر بعض أيضاً — منافع الإنسان . فجعل الله الواحد فى ألوهيته قسما من الزمن مظلماً : « فمحونا آية الليل » وآخر مضيئاً : « وجعلنا آية النهار مبصرة » . وربط بالليل مصلحة للإنسان هى السكنى والاطمئنان فيه ، كما يصرح القرآن الكريم فى آية أخرى : « **وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا** » (١) . كما ربط بالنهار مصلحة أخرى له ، وهى تمكنه فى ضوئه من السعى والعمل من أجل الرزق : « لتبتغوا فضلا من ربكم» وربط بتوالى الليل للنهار ، والنهار لليل مصلحة ثالثة ، وهى وقوفه على عدد السنين والحساب . . هى ضبطه لحركات التاريخ وأحداث الحياة الانسانية ، حتى لاينسى الماضى ، وحتى يرتب أمره فى المستقبل . وبذلك تدق معرفة الانسان ، ويقترب من صفات ربه . فسبحانه يدق علمه ، بجانب ما له من شمول فيه . والله إذ يفصل هنا فى أهداف الزمن فإنما لينير الطريق للإنسان فى الوقوف على تفصيلات الوجود الذى يعيش فيه.ومن وقوف الانسان على تباين الليل والنهار واختلافهما ، مع أنهما معا يشتركان فى الزمن ، يدرك الدليل على وحدة الألوهية.. فالنقيض ونقيضه ، وردهما إلى قدر مشترك بينهما، لايكون إلا من مدبر واحد . إذ لوكان أحد النقيضين من مدبر والنقيض الآخر من مدبر آخر : لما التقيا إطلاقا . ومن التباين بين الليل والنهار يدرك الانسان

---

(١) الفرقان : ٤٧ .

كذلك أن الأصل والسائد فى الكون هو وجود النقيض ونقيضه ، وأن كل نقيض إذ يبتدىء من نقيضه ينتهى إلى نقيضه أيضا : فالنهار يبتدىء من الليل وينتهى إليه ، وكذلك العكس . والقوة تبتدىء من الضعف وتنتهى إليه ، والعكس كذلك . فإذا ابتدأ شباب الانسان — وشبابه يمثل القوة — من طفولته ، فإن هذا الشباب ينتهى من جديد إلى الشيخوخة ، وهى تمثل الضعف فى الانسان مرة أخرى ، وهكذا) . وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (واذا قام وجود النقيض ونقيضه فى الكون دليلا على وحدة الله فى ألوهيته ، فالايمان بالله فى وحدته فى ألوهيته أمر قائم ويجب أن يعلم الانسان أن علمه فى حياته الدنيا مرصود له ، ولايفارقه ، وأنه سيعرض عليه يوم القيامة ، ويوكل له نفسه مراجعة سجله الذى سجلت فيه أعماله ، كما يترك له أيضا استخلاص النتائج التى تلاحقه من نوع عمله المسجل) . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولاتزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا (والنتائج التى تستخلص من عمل كل إنسان فى الدنيا تقف عنده وحده ، ولاتتعداه لغيره : فنتائج الهداية يعود نفعها للمهتدى ذاته ، ونتائج الحيرة والضلال يعود ضررها على الضال وصاحب الحيرة . ولاتحمل نفس أخطأت خطأ نفس أخرى . ولايقع عذاب الله وعقابه على نفس ضالة إلا بعد أن يبلغ رسولها إليها هداية الله فى رسالته للناس . وهنا العدل واضح فى عقاب الله للناس على ضلالهم) .

* * *

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ
فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

واذا كان نفع الهداية هو لذات المهتدى، واذا كان ضرر الضلال والحيرة يرجع لذات الضال ، واذا كانت الأخطاء يقع وزرها على المخطىء ذاته، فمعنى ذلك: أن مابذات الإنسان ينعكس على تصرفاته وسلوكه ، وأن ما يصيب الإنسان يعود الى داخلية نفسه. والمجتمع شأنه شأن الفرد : مابذاته يلون حياته ومنهجه فيها . كما يحدد مصيره : واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً (وهكذا كل مجتمع يسعى بذاته الى هلاك نفسه ، أو إلى تماسكه . فالمجتمع المقدر له أن يتقوض يباشر تقويضه مجموعة قادته القلة بعبثهم وفسادهم، نتيجة ترفهم وتوليهم قيادته، وتقويضه عندئذ أمر ذاتى له على معنى : أن مايصيبه من أزمات تنتهى به إلى التغيير : ليس من أمر خارج عنه . وإنما عبث قادته وظلمهم وانحرافهم يؤدى حتما الى هذه النهاية . وإرادة الله فى تغييره هى فى ربط العبث والفساد من المترفين فيه كمقدمة لإنهاء أمره فالسبب فى التغيير ذاتى فى إطار الإرادة الإلهية) . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ؟ (وتاريخ المجتمعات البشرية منذ نوح حتى عهد الرسالة المحمدية يعطى الدليل على أن مجتمعات عديدة قد تغيرت بعوامل ذاتية ، ربط الله بينها وبين إهلاكها وانهاء وجودها) ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً (والله على علم تام بمصير المجتمعات وعلى دراية دقيقة بما يجرى فيها من انحرافات تؤدى الى هلاكها

وتغييرها . وعلمه هذا دليل على ربوبيته وعلى استحقاقه العبادة وحده ، دون ما سواه) .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

والله عندما خلق الإنسان من طين ، وهو مادة ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه فميزه بالعقل والادراك ، شاء له أن يمارس عقله فى حرية ، فيختار ما يشاء من إيمان بالله أو كفر به ، بعد أن ينير له طريق الايمان ، ويكشف له عن طريق الكفر عن طريق الرسول المكلف بتبليغ الرسالة الالهية إليه .

فالرسالة الالهية بمثابة ضوء فقط فى الطريق . والتحرك فى أى اتجاه هو شأن الانسان وحده . وكى لا يكون هناك عائق يعوق الانسان فى ممارسة حريته على الوجه الأكمل جعل الله قضية الرزق والمال فى الحياة بعيدة عن أن يكون لها أى تأثير فى دفع الانسان نحو الإيمان ، أو نحو الكفر . فالرزق والمال للمؤمن والكافر على السواء . وقد يكون حظ الكافر منه أكثر من حظ المؤمن بالله . لأن هناك بعد المال والرزق ما يميز به الله المؤمن عن الكافر وهو ثواب الآخره : من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً (ولذا كان من يختار الدنيا من البشر .. من يختار الرزق والمال فيها ، ويختار زينتها ومتعها المادية وحدها

من أولئكم الذين لا يؤمنون إلا بها وينكرون الآخرة ، كما ينكرون الايمان بالله ، فالله يعجل له فيها ما يريد من مال وزينة ، ومتاع . أى أن الله سبحانه لا يجعل حرمان هؤلاء الكفار من متاع الدنيا ورزق الله فيها عقابا لهم على كفرهم . أى لا يريد أن يكون حرمانهم هم « عقاباً » كما لا يريد أن يكون عطاؤه من هذا المتاع الدنيوى للمؤمنين ثوابا على إيمانهم به . وإنما جزاؤه للكافرين هو وضعهم فى نار جهنم فى غير أسف ، وفى احتقار لهم . أما الدنيا ومتعها فتبقى بعيدة عن التأثير على أى اتجاه : إذ لو استخدمت الدنيا كعامل تأثير على اتجاه معين ، لقوى الله فى الانسان جانبه المادى على حساب جانبه العقلى . وهنا لا يكون مجال لرسالة الله فى حياته . إذ هدف هذه الرسالة هو معاونة العقل على الهداية ، والخروج من الظلام والضلال . فالوضع بين العقل والمادة فى الانسان وضع غير متكافىء فى القوة .وجاءت الرسالة لتعزز وضع العقل، لالتزيد من ضعفه) . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (أما من اتجه إلى هداية الله والايمان به — وأمارة اتجاهه إلى ذلك أن يستهدف بعمله وبسعيه ثواب الآخرة وإرضاء الله ، وليس الدنيا ومتعها فى ذاتها — فإن عمله فى الدنيا طبقا لهداية الله سيكون محل اعتبار من الله سبحانه ، سيجازى عليه الجزاء الأوفى منه جل جلاله . والقرآن فى آيات عديدة يعبر عن الكافرين بأولئكم الذين يستحبون الحياة الدنيا ، أو بالذين لا يؤمنون بالآخرة ، كما يعبر فى مقابل ذلك عن المؤمنين وعباد الله بأنهم الذين يسعون إلى الآخرة بعملهم ، بعد إيمانهم بالله ، فالوقوف عند حد الدنيا أمارة الكفر أو المادية وابتغاء الآخرة من العمل فى الدنيا أمارة الايمان والهداية) . كلا نمد : هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً (وتأتى هذه الآية لتؤكد مضمون الآيتين

السابقتين عليها . . لتؤكد : أن المال والرزق فى هذه الحياة لا يدخله الله فى حياة الإنسان كعامل للحمل على الإيمان . بل يبعده بعدا تاما عن دائرة التأثير على الإنسان . فالكافر له نصيب من عطاء الله ، والمؤمن : له نصيب أيضاً من هذا العطاء . وقد يكون نصيب الثانى فيه أقل من نصيب الأول منه ، وبذلك لا يحرم الكافر من رزق الله وماله . وإبعاد الرزق وعطاءالله عن أن يكون ذا تأثير على الإيمان والكفر يصون الله به للإنسان حريته ومشيئته فى الاختيار ، ولتبقى وتظل الدنيا مرحلة تجربة وابتلاء إلى نهايتها . ثم من جهة أخرى أعطى الله الانسان سلطة العقل فى مواجهة ما به من مادة وما ينزع إليه من اتجـــاه . والمنطق يقضى بألا يعوق العقل فى أداء وظيفته ، بالاغراء المادى فى الدنيا ، وبربط الدنيا ومتعها برفض الكفر وقبول الايمان ، مكرها عليه إكراها غير مباشر) . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (بل لم يبعد الله سبحانه المال والرزق فى الدنيا عن أن يكون ذا تأثير على قبول الإيمان فقط . وإنما جعل فيه مفاضلة بين الناس : بين من يملك أكثر ، ومن يملك أقل ، أو لا يملك منه شيئا . وقد يكون المالك الأكثر معارضا للإيمان ورافضا لقبوله ، بينما المالك القليل أو الذى لا يملك منه مؤمنا بالله . وهذه المفاضلة من جانب آخر ، تعلن عن الفصل التام بين الرزق من جانب ، والإيمان والكفر من جانب آخر ، والهدف من هذا الفصل كما ذكر من قبل ، هو ضمان الحرية للإنسان فى هذا القبول أو الرفض ، ومن جهة ثانية أن جزاء الله للمؤمن هو دار الخلد فى الجنة ، بينما جزاؤه للكافر هو جهنم لا يخرج من نارها أبدا ، يحيا ولا يموت فيها إطلاقا . وضمان الحرية الفردية إلى هذا الحد فى قبول الإيمان أو رفضه ، هو فى واقع الأمر ضمان فاعلية الإيمان لمن يؤمن ، فالمؤمن عندما يؤمن الآن فى نطاق هذه الحرية يلتزم

بنفسه بنتائج ما يؤمن به نحو نفسه ، ونحو أمته : أى لا يحركه فى أداء ما يجب عليه حسب إيمانه إلا حركته الذاتية ، ولا يشعر إذا ما أدى واجبه أنه تخلص من أداء ما أكرهته نفسه عليه ، وإنما شعوره بأداء واجبه هو شعور مصحوب بالرضا والمسرة . لأن مايؤديه من واجب هو قربى إلى الله ، أو وسيلة لرضائه جل شأنه عنه .

والمجتمعات المادية التى تكره الأفراد فيها على الطاعة لاتجاه معين ، قد تنجح فى الإلزام القهرى فترة ما . ولكنها لا تنجح إطلاقا فى إرضاء نفوس الأفراد وإزالة الكآبة فى نظرتها إلى الحياة . ومن هنا تبدو الحياة الإنسانية واضحة فى مجتمع الإيمان حقا ، بينما هى تختفى فى مجتمع الإكراه والإلزام)

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ
مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠)

والآن تتجه السورة إلى الرسول محمد عليه السلام — بعد إعلان

القرآن عن حرية الإيمان والكفر للإنسان – بالنصح له وبالدعوة لما نصح به : بأن يلتزم بوحدة الألوهية لله سبحانه وتعالى ولايشرك معه غيره كائنا ما كان) لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا (لأن الشرك بالله يصير بالمشرك إلى أن يكون مذموما ومخذولا معا : أما كونه مذموما فلأنه لم يستخدم المنطق السليم فى الإيمان بالله ، واتبع هواه فأشرك معه غيره ، وليس أذم للانسان من ألا يحسن استخدام فكره وعقله ، وأما كونه مخذولا غير ناجح فى إقدامه على قبول الشرعية للمولى سبحانه وتعالى ، فلأن ما أشركه مع الله عديم الجدوى فى حياة الانسان ، مهما تصوره المشرك فى نفعه أو ضره إذ هو متغير . وما كان متغيراً لا ينتظر منه أن يسانده من يتجه إليه بالولاء طول حاجته إلى المساندة .

وبالاضافة إلى أن الشرك دليل على سوء استخدام المنطق الانسانى، وبالتالى هو مصدر ذم للمشرك فإنه مع ذلك فى نهاية أمره طريق إلى الهزيمة والخذلان ، لأن غايته من استجلاب المنفعة أو دفع المضرة لا تتحقق) وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه (ومن أجل غايته المذمومة والخاسرة كان قضاء الله لصالح البشرية أن تتجه بالعبادة لله وحده . وهنا مكان دعوتك أيها الرسول صلوات الله عليك ،وأساس رسالتك لجميع البشرية) وبالوالدين إحسانا (ويأتى فى الوضع الثانى فى المصالح البشرية بعد عبادة الله وحده : الإحسان إلى الوالدين ، والاحسان إليهما أمر يتعدى رعاية مصلحتهما إلى التهذيب فى معاملتهما والتزام كل ما يوفر لها قولا كريما وهى المشاعر الكريمة نحوهما) إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ؛ (ولكى لا يترك القرآن الإحسان إليهما مجملا

تعرضت السورة لشرحه فى حالة فاصلة فى حياة الوالدين . وهى حياة حاجتهما فى سن الشيخوخة . فالإحسان إليهما فى هذا الوقت بالذات يتمثل فى تجنب القول المؤذى لإحساسهما ، والاستعاضة عنه بالقول المهذب الكريم .. وفى طاعتهما والخضوع لهما عدا ما يطلبان من الشرك على نحو ما جاء فى سورة العنكبوت فى قول الله تعالى : « **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما** » (١) .

وأخيراً فى الدعاء لهما بالرحمة لقاء ما قاما به من تربية أولادهما وهم صغار ، وتفصيل الإحسان على هذا النحو فى سن الشيخوخة لا يعنى أنه غير مطلوب فى مرحلة أخرى مبكرة من مراحل حياتهما . ولكن تفصيله فى المرحلة الأخيرة إنما هو لتأكيد أمره فيها على وجه خاص).ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا (وتوجه الآية هنا الأمر الخطاب إلى الأولاد محذرة إياهم من عدم اتباع ما أمر به الله من معاملة الوالدين بالحسنى ، ومنذرة لهم بأن المولى سبحانه يعلم خلجات النفوس وما تنطوى عليه فى شأن البواعث التى تدفع نحو العمل . كما تعد بالغفران عن الأخطاء التى باشرها الأولاد فى حق آبائهم من قبل إن هم رجعوا إلى الله واتبعوا ما أمروا به من الإحسان إليهم واستقاموا على طريق الهداية) .

وآت ذا القربى حقه والمسكين ، وابن السبيل (ثم يأتى فى المصالح البشرية وتماسك الجماعة ، بعد رعاية الوالدين : سد حاجة القريب . وعبرت الآية عن هذه الحاجة بالحق له ، لتؤكد أهمية علاقة القريب ، إيجابا وسلبا فى تماسك الأسرة وفى تفرقها . فالقريب صاحب الحاجة أول من يحقد على القريب صاحب اليسار ، إذا لم يسانده وقت شدته وحاجته ، .. وبالاضافة

---

(١) العنكبوت : ٨ .

إلى سد حاجة القريب ، تطلب الآية كذلك سد حاجة المسكين ، وابن السبيل .

والمسكين هو الذى يجد فى عمله ولا يكفى دخله منه حاجته وأهله .

وابن السبيل هو المار فى الطريق وانقطعت عنه إمكانية الوصول إلى موطنه ، وهؤلاء الأنواع الثلاثة : ذو القرابة ، والمسكين ، وابن السبيل يحتلون الوضع الثالث ، بعد عبادة الله وحده ، ورعاية الوالدين، فيما يوصى به القرآن هنا . والقرآن بما يوصى به هنا وفى الآيات التالية إلى قوله تعالى « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » . يوضح الأسس التى يقوم عليها تماسك المجتمع وهى أسس تتصل بالروابط بين الأفراد بعضهم ببعض ، وبسلوك الأفراد أنفسهم) ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا (ليس التبذير ضد البخل أو الشح ، وإنما هو الإنفاق فى وجه غير مشروع ، ولو كان قليلا . هو الإنفاق فى محرم أو صالح عدو للأمة . ولذا تجعل الآية هنا المبذرين إخوانا للشياطين فى جلب الشر على المؤمنين ، وتعطيهم حكم الشيطان فى الكفر بنعمة الله . أما الشح فهو الإمساك عن الإنفاق فيما يدعو الأمر للصالح العام إلى إنفاق . بينما البخل هو التقتير فيه) وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا (تعود الآية هنا إلى رعاية أصحاب القرابة والمساكين وأبناء السبيل لتوصى بعوض عن رعايتهم بالمال ، إذا لم يكن المال متوافرا . وهذا العوض أمر إنسانى ، يطيب خاطر النفوس ويبقى على العلاقات الطيبة ..هو القول المهذب الكريم .. هو الرد على هؤلاء بما يشعرهم بالأخوة وعدم الاستعلاء . وذلك هو القول الميسور عندما لم يكن هناك مال والإنسان فى انتظار رحمة الله وعطائه . وهكذا يضع الإسلام أهمية على الجانب الإنسانى فى العلاقات بين الأفراد

لا يقل أهمية عن جانب المال فى تقوية هذه العلاقات) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا (واذ أوصت الآية فيماسبق بعدم التبذير ، أى بعدم الانفاق : فى وجه غير مشروع ، فإن الآية الأولى من هاتين الآيتين توصى بالاعتدال فى إنفاق المال بوجه عام. ومعنى الاعتدال فى الإنفاق : تجنب البخل والشح من جانب، وتجنب بسط اليد وعدم ضبطها فى الإنفاق من جانب آخر ؛ لأن أيا من الطرفين فى الإنفاق يؤدى فى النهاية إلى إحساس المنفق بالندم والملامة والحسرة ، لأنه فى حال البخل أو الشح يمسك صاحب المال عن أداء واجب تقضى المصلحة بأدائه؛ وبذلك يفوت مصلحة أو يجلب ضررا . وفى حال بسط اليد لا يبقى ما قد تطلب الضرورة العاجلة له ولأسرته أو لأمته . وبذلك يفوت أيضا مصلحة أو يجلب ضررا . ولا ينبغى إذن أن يتجاوز المنفق من ماله حد الاعتدال .. كما لا ينبغى أن يسلك فى المال ما يسلكه الله فى العطاء إذ يبسط سبحانه الرزق لمن يشاء ، ويقدره على من يشاء ، لأنه سبحانه خبير بالنفوس وبصير بالغاية التى من أجلها كان البسط أو التقدير . فهناك فرق واضح بين الإنسان والله ، فى إدراك المنفعة وادراك الضرر عند استخدام المال وتوزيعه) .

★★★

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا
كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف
فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا
كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا
تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ
ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

الإيمان بالله وحده .. ورعاية الوالدين .. وسد حاجة ذى القربى والمسكين ، وابن السبيل أمور ايجابية ومباشرتها تعود بالنفع على التماسك فى الأمة . وهى فى الوقت نفسه تصور مستوى إنسانيا فى العلاقات بين الأفراد تدعو إليه الروحية ، ويدعو إليه التحول من الجاهلية أو المادية .. إلى الإسلام .

وهناك بجانب هذه الايجابيات : سلبيات تعد ظواهر للمادية والوثنية يجب التخلص منها والانتهاء عنها إذا كان هناك تصميم على قبول الإسلام ، والتحول إلى مستواه فى الإنسانية . والآيات التالية تعرض لهذه السلبيات وتوصى بتجنبها : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن

قتلهم كان خطئاً كبيرا ﴾ هنا النهى عن قتل الأولاد ذكوراً أو إناثا ، مخافة الفقر والنزول إلى مستوى أدنى فى المعيشة.. نهى الوالدين أو أحدهما عن مباشرة هذه الجريمة . إذ طالما كانت المادية أو الجاهلية تركز على المنفعة المادية والمبادلة المادية .. وتحصيل المتع المادية وحدها فى الوقت الراهن، فى حياة الماديين، فإن التخفيف من عدد الأولاد بالقتل يكون أمراً مقبولا فى نظرهم للمحافظة على مستوى المعيشة ، سواء أكان القتل بالإجهاض أو بوسيلة أخرى بعد أن تدب الحياة فى الجنين ، أم كان القتل بعد ولادته ، وهذه الظاهرة - ظاهرة تقليل عدد الأولاد بمنع استمرار حياتهم - تدور مع كل عهد مادى من عهود البشرية . والله إذ يدعو هنا إلى تجنب مباشرة هذه الظاهرة ، فإنه يوضح هذه الجريمة أنها تدخل فى عداد الجرائم الخطرة على النوع البشرى لأن مسايرتها قد تنتهى إلى فناء البشرية ، فضلا عن أن روح الأنانية الصارخة هى التى تحمل عليها . كما يعلن فى صراحة : أن أرزاق هؤلاء الذين يضحى بهم ، دفعا للفقر والنزول إلى مستوى أقل فى الحياة المعيشية ، لا تتكفل بها آباؤهم فى واقع الأمر ، وبالتالى لا تنقص شيئا من مستوى معيشتهم. فالله هو الذى يتكفل بأرزاقهم ، كما يتكفل بأرزاق آبائهم على السواء. لأن عبادة الانسان لله وهو ذو صفات عديدة فى الكمال، تدفع الإنسان العابد إلى تطوير ذاته وطاقاته البشرية ، بمحاكاة تلك الصفات من العلم والابداع ، والخلق، وغيرها مما هى مذكورة فى كتاب الله . والانسان إذا طور طاقاته البشرية فأصبح ذا علم أوسع وأدق، وذا إبداع أكثر ، وذا إتقان أجود اتسع أمامه مجال العمل وكسبه الرزق ، وعندئذ يمكن أن يغطى حاجة نفسه وحاجة أولاده ، دون أن يخشى الفقر الذى تدفع خشيته الماديين إلى قتل أولادهم وعندئذ تصبح خشية الفقر أمرا متوهما ، ولا يغير الواقع فى شىء . ولكنها الأنانية التى تصور غير الواقع واقعا) . ولا تقربوا الزنا ﴾ إنه كان فاحشة وساء

سبيلا (وهنا أيضاً : النهى عن الزنا كجريمة اجتماعية . فإنه فضلا عن أنالزنا سبب فى ضياع الأنساب ، فإنه يسقط المسئولية العلنية عن الأولاد : سببان فى ضعف المجتمع وفى تفككه والماديون أو الجاهليون ، كما يسميهم القرآن الكريم لأنهم أنانيون ، لا تعنيهم رابطة المجتمع بقـــدر ما يعنيهم تحقيق نزواتهم ومتعهم المحسوسة : أما المجتمع الإنسانى صاحب الروحية والقيم الانسانية ، فإن اهتمامه الأول : قوة الترابط والتماسك . ولذا يحرص على تجنب الزنا ، كما ينظر إليه على أنه جريمة اجتماعية ولكى يكون القرآن متمشياً مع الطبيعة البشرية فى ميولها وغرائزها وخصائصها عند ما حرم الزنا ، رخص بتعدد الزوجات إلى أربع ، ليكون فى هذا التعدد متنفساً لمن تدفعه ظروفه الخاصة إلى مباشرة أكثر من امرأة واحدة فهدف من أهداف الترخيص بتعدد الزوجات الوقاية من الزنا . والمؤمن بالإسلام ، إذن ليس فى حاجة إلى سرية فى العلاقات الجنسية ، ولا إلى مبادلة بين النساء ؟ زوجات أو صديقات ، ولا إلى مباشرة اللواط أو السحاق . من تلك الظواهر التى تعدها الحضارة المعاصرة القائمة على مشروعية الزواج بواحدة فحسب أمرا مألوفاً فى مجتمعاتها .

والإسلام عند ما يرخص بتعدد الزوجات لا يجعل من هذه الرخصة لعبة يتلهى بها الرجل ويصرف عن طريقها نزوته ، فى غير احترام للمرأة، وفى غير اعتبار للقيم الإنسانية التى يجب أن تسود علاقة الذكر بالأنثى . وإنما الترخيص به مشروط بالجدية فى تحمل أعباء الأسرة ، وفى تطبيق العدل فى المعاملة والمساواة فى الأعتبار بين الزوجات ، وإلا فيجب الاقتصار على واحدة : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة »(١) ولا تقتلوا النفس التى حرم الله

---

(٢) النساء : ٣

إلا بالحق ؛ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً (وبالإضافة إلى النهى عن الجريمتين الاجتماعيتين السابقتين ، وهما جريمتا : قتل الأولاد خشية الفقر ، ومباشرة الزنا ـ تعلن الآية هنا : نهيناً عن جريمة اجتماعية ثالثة تشيع فى المجتمعات الجاهلية أى المادية ، وهى جريمة القتل فى غير قصاص . فهذه المجتمعات تستند فيها القيادة أو الزعامة إلى الارهاب والتتبع للأبرياء ، أولئكم الذين لا ذنب لهم إلا مخالفتهم فى الرأى لأصحاب الزعامات فى تلك المجتمعات « **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ، **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** »(١) .. « **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله** »(٢) . فالآية الأولى هنا تعرض لمجتمع مادى ، وهو : مجتمع فرعون . والآية الثانية تعرض لمجتمع مادى آخر ، وهو مجتمع مكة ، والظاهرة فيهما واحدة . وهى ظاهرة التتبع للأبرياء من المخالفين لاتجاه الزعامة : بالنفى من الديار ، أو بالقتل وسفك الدماء ، أو بالتعذيب والتنكيل .

والاسلام إذ يعتبر القتل بغير حق جريمة اجتماعية لا يعتبره لأنه ينقص من عدد أفراد المجتمع فحسب ، بل لأنه كذلك يتخذ وسيلة من وسائل الإرهاب وإشاعة الرعب والقلق وعدم الاستقرار فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ولذا يقول الله تعالى بعد تحديد عقاب جريمة القتل : « **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل : أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** »(٣) ولا شك أن القتل كوسيلة من وسائل الإرهاب فى المجتمع المادى ، هو قتل لجميع أفراده من خوف القتل فى غير حق أو ذنب .. وأن الوقوف بالقتل عند حد القصاص فقط هو ترك للأفراد فى

---

(١) الأعراف : ١٢٦ (٢) الحج : ٤٠ (٣) المائدة : ٣٢

المجتمع وإحياء لهم .. هو إحياء الأمان وتأمين الناس على حياتهم فى ظل الحق والعدل) ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً (ومع أن قتل النفس بغير حق جريمة اجتماعية ، فإن القاتل عند ما يقتص منه ولى القتيل — والقصاص حق له من الله — لا ينبغى أن يمثل به ، إذ يكفى أن الله قد أقر حقه فى القصاص ، فلا يتجاوز مبدأ القتل إلى الاسراف فيه . فالقاتل إنسان قد أجرم ، فيؤخذ بجرمه ولكن لا تهدر إنسانيته عندئذ . وولى القتيل قد نصره الله بإقرار حقه فى القصاص ، فلا يفتتن بنصر الله إياه ويسرف فيه) . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده (ومع النهى عن الجرائم الاجتماعية الثلاث التى مرت يلحق القرآن هنا بالنهى عنها نهيا عن أمور أخرى إذا انتهى عنها المؤمنون استقرت العلاقات فيما بينهم واطمأنت نفوس بعضهم إلى بعض ، ثم فى الوقت نفسه كان الانتهاء عنها أمارة التحول الكامل من الجاهلية إلى الإنسانية أو من المادية إلى الروحية ، وكان الذين أعلنوا إيمانهم بالأمس على إيمان صادق اليوم . وفى مقدمة هذه الأمور التى ينهى عنها القرآن هنا إلحاقاً بالنهى عن الجرائم الاجتماعية الثلاث :

النهى عن الإساءة إلى مال اليتيم عند مباشرته وقبل أن يسلم إليه عند رشده .

والإساءة إلى مال اليتيم تتصور فى استبدال الطيب منه بالخبيث من مال اليتيم ، أى بأخذ الأحسن منه ، وترك السيىء له .. أو فى إضافة جزء منه فى غير مقابل إلى مال اليتيم : **« ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم »**(١) .. وتتصور الإساءة إلى مال اليتيم كذلك

---

(١) النساء : ٢

بالإسراف فى الإنفاق على اليتيم أو فى عدم إنماء ماله .. أو بالتعجيل فى إنفاق ما لا تدعو الضرورة إلى إنفاقه قبيل أن يسلم المال إليه عند بلوغ الرشد : « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا »(١) ومضمون هذا النهى فى صورة أمر إيجابى هو : أن مباشرة مال اليتيم يجب ألا تكون إلا بالطريق الأحسن ، وهو الطريق الذى يحافظ على ماله من الضياع كما يساعد على إنمائه نمواً مشروعاً ، وبحيث يتيسر تسليمه إياه عند بلوغه الرشد . وبعد : ألا تلحق « خزينة الدولة » بمال اليتيم ؟ إذ أن الأموال التى تجمع من أناس — وهم دافعو الضرائب مباشرة أو غير مباشرة وغيرها — لا يباشرونها ولا يستطيعون أن يباشروها كذلك . والذى يباشرها هو من يولى عليها كالقيم على مال اليتيم سواء بسواء . وهنا يجب أن تسرى على هذه الأموال وعلى القائمين عليها من ولاة ما يسرى على أموال اليتامى والأوصياء عليها من نصائح القرآن بالنسبة إلى اليتامى والأوصياء على أموالهم .

والحكومة فى الدولة ليست إلا هؤلاء المولين على أموال الخزينة العامة . أى هم نظراء الأوصياء على أموال اليتامى فى مجموعهم . ومسئولية رجال الحكومة عن الأموال العامة كذلك هى مسئولية فى الدرجة الأولى أمام الله تعالى . أما مسئوليتهم أمام الدولة فهى مسئولية مرءوس منهم نحو الرئيس بينهم ، ولكن كلهم نظراء فى أنهم يتولون الآن أمر مال هو الآخر حيل بينهم وبين مباشرته كما حيل بين اليتيم ومباشرة ماله قبل رشده) . وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا (وما تقدم من النهى عن ارتكاب الجرائم الاجتماعية الثلاث من قتل الأولاد .. خشية الفقر ، ومباشرة الزنا ، وقتل النفس بغير حق ثم النهى عن مباشرة مال اليتيم إلا بالتى هى

---

(١) النساء : ٦

أحسن ، يشارك فى تحديد الإطار الذى يجب أن تدور فيه العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض . أى يشارك فى النمط الإنسانى الذى يبتغيه الإسلام للعلاقات الاجتماعية والوفاء بالعهد– بين الأفراد بعضهم ببعض – هو جانب فى هذا الإطار كذلك . ولكنه العهد الذى يرضى عنه الله ، وهو العهد فى سبيل الخير بين الناس ، وليس العهد على الظلم والاعتداء . ومن أجل ذلك : الذين يشاركون حاكما فى مسئولية الاعتداء والظلم للأبرياء ، لا عهد بينهم وبينه على سبيل الحقيقة يجب عليهم الوفاء به . والآية وإن لم تصرح بإضافة العهد إلى الله هنا لكن فى بعض آيات أخرى جاء قوله تعالى : **«وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم »**(١) .. وقوله : **« وكان عهد الله مسئولا »**(٢) . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا (والعدل فى المعاملات التجارية فيما يكال أو يوزن ، هو كذلك إسهام فى النمط الإنسانى الذى يطلبه الإسلام للعلاقات الاجتماعية . وأثره بالنسبة للشخص الذى يفى الكيل فيما يكال ويزن بالحق فيما يوزن لا يقل عن أثره فى العلاقات بين الأفراد بصفة عامة . فهو خير فى ذاته وأحسن عاقبة للمباشر له). ولا تقف ما ليس لك به علم (أى لا تتبع ما لا تعلمه ، فى قولك أو فعلك فإذا قلت أو فعلت فقل أو افعل عن علم ، وقف فى قولك وفى فعلك عند هذا الحد، وشهادة الزور لذلك مسايرة من الشاهد لما لا يعلم) إن السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أو لئك كان عنه مسئولا (والإنسان بما أعده الله عليه من العقل والقلب مسئول مسئولية صريحة عن الأخذ بهذا الأدب فى أقواله وفى أفعاله ، إذ ليس إعداده بالعقل والقلب إلا لتكليفه بالمسئولية الشخصية . وهى مسئولية

---

(١) النحل : ٩١

(٢) الأحزاب : ١٥

يؤدى عنها الحساب يوم لقائه مع الله فى الآخرة) ... ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا (كذلك عدم مبالغة الإنسان فى تقييم ذاته جانب من جوانب الإطار الذى يحدد المستوى الإنسانى للانسان . إذ المبالغة فى تقييم الذات قد تؤدى إلى الطغيان ، والخروج عن حدود الطاقة البشرية التى هى طاقة محدودة لا تطاول الجبال فى ارتفاعها ولا تنفذ إلى عمق الأرض فى اختراقها ، وأمارة المبالغة فى التقييم أن يكون الإنسان ذا خيلاء وذا كبرياء فى سيره ومشيته . وهكذا الآن : عدم اقتراف الجرائم الاجتماعية الثلاث .. ومباشرة مال اليتيم بالتى هى أحسن . . والوفاء بالعهد .. والعدل فى المعاملات التجارية .. وعدم المبالغة فى تقييم الذات ، أمور ضرورية فى استقرار العلاقات بين الأفراد فى المجتمع . لأنها تصون حرمة النفس ، والعرض ، والمال من الاعتداء عليها ، وتحفظ التوازن فى المعاملات فى الاعتبارات البشرية) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها (ومن أجل منزلة هذه الأمور الضرورية فى العلاقات الطيبة من الأفراد ، كان الخروج عليها وعدم احترامها مكروها ومبغوضاً عند الله) . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة (فهى أمور تعد من حكمة الله التى أوحى بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل ما هو من حكمة ينطوى على ضرورة وتأكيد لصالح البشرية ، لا يجوز تخطيه بحال ، وهى فى الوقت نفسه المميز الواضح لانتقال المؤمن بالله من ضلال الجاهلية والمادية إلى مستوى الإنسانية. وتعتبر لهذا حجر الزاوية فى اكتساب المستوى الانسانى) ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً (وتعود سورة الإسراء الآن بعد تلك الوصايا التى تحدد المستوى الإنسانى فى السلوك وفى المعاملات ، إلى تكليف الرسول عليه السلام بالدعوة إلى التوحيد فى الألوهية وطرح الشرك والوثنية المادية . وهى دعوة رئيسية فى رسالة الإسلام ، وفى طابع الوحى

المكى فى السور المكية . وتقرر طلب الدعوة إلى التوحيد بالتحذير والإنذار بعذاب جهنم لمن لا يقبل الأخذ بها ويستمر فى جاهليته وماديته) .

أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا
(٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل
لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ
وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا (٤٤)

ثم تأخذ السورة فى التدليل على إبطال الشرك بادعاء أن لله ولداً فتقول : « أفأصفاكم ربكم بالبنين ، واتخذ من الملائكة إناثا ؟ (فقد كان بين ادعاءات مشركى مكة : أن لله ولداً ، وأن هذا الولد على التحديد من الإناث دون الذكور : « **ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون ؟** »(١) . . (وأن بناته هن الملائكة ، بينما الذكور من الأولاد لهم وحدهم دون الله وهنا تستفهم الآية استفهاماً إنكارياً) أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولا عظيما (ولكن هذا الادعاء ينطوى على خطر كبير . لأنه ادعاء واضح البطلان فى حق من له الأمر كله ، وهو الله تعالى .

---

(١) الصافات : ١٥١ — ١٥٤

قول ليس عليه دليل : « فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين »(١) وقد تكفلت سورة الصافات بتوضيح بطلان هذا الادعاء ضمن ما ذكرته من خصائص الملائكة) . ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا (أى أتينا فى هذا القرآن بكل ما يوضح شأن الله جل جلاله ؛ لعل هؤلاء المشركين من أهل مكة يراجعوا ادعاءاتهم ويعتبروا بما جاء فيه) وما يزيدهم إلا نفوراً (ولكن على العكس جاء التوضيح فى القرآن لشأن المولى سبحانه ، فحملهم على البعد عنه والنفور من اتباعه والإيمان به ، لأنهم فحسب لا يريدون اتباعه والإيمان به ، احتفاظا بزعامتهم فى مكة وحرصاً على كهانتهم فى قيادة مجتمعهم) قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا (ويكفى أن تقول لهم أيها الرسول صلوات الله عليك: إنه لو كانت هناك آلهة شركاء لله لاختلفوا فيما بينهم حتما ، ولأدى اختلافهم بالتالى إلى الاستعانة بصاحب القوة والعرش من بينهم،والاستعانة بالغير تنطوى على الحاجة إليه ،والحاجة دليل على عدم تمام القدرة لمن له حاجة . والإله لابد أن يكون تام القدرة وكاملا فى صفاته كلها. فادعاء آلهة مع الله ادعاء واضح الكذب والتهافت) سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض، ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم (تنزه الله جل جلاله عن ادعائهم،وسما فى عظمته سموا كبيرا ، لا ينال منه اطلاقا مثل هذا الادعاء ، فكل من فى الوجود يشيد بعظمته وسموه ، وليس هناك فى السماء أو فى الأرض من موجود إلا ويثنى عليه ، وإن كان تعبيره عن ذلك ليس فى مستوى فهم الناس له) إنه كان حليما غفورا (ومع هذه

---

(١) الصافات : ١٥٧

الادعاءات الشنيعة التى يدعيها المكيون المشركون ، فالله جلت قدرته لا يأخذه انفعال أو غضب ، وإنماهو حليم يعطى الفرصة للمخطىء لعله يعود إلى الصواب لحظة ما . فإن عاد إلى الصواب وآمن بوحدة الله فى ألوهيته فإنه يغفر له ما أخطأ فيه ويعفو عن إساءته الماضية إلى ذاته سبحانه) .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

ولكن الأمر ليس أمر فرصة تعطى لمخطىء علّه يرجع عن خطئه ، وإنما هو أمر إصرار على الكفر والخطأ والتمادى فيه دون سماع لحجة ، فضلا عن تفهم لها : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً (فهؤلاء الماديون الذين أمارة ماديتهم أنهم ينكرون البعث والآخرة ، بينهم وبين القرآن حجاب منيع : قلوبهم مغلقة دونه ، فآذانهم صماء لا تسمح بورود كلمة منه إليها . ولذلك لا يعون منه شيئاً عندما تقرأ أيها الرسول صلوات الله عليك بعضا منه . ويبدو إعراضهم الشديد عن رسالتك وعن القرآن عندما تتلو آية من آياته ، تعبر عن وحدة الله فى ألوهيته ، فإنهم لا يستمرون فى جلستهم فى مجلس القرآن رغم أنهم يضعون حجابا كثيفاً بينهم وبين التأثر به ..

وإنما يولون الأدبار ويفارقون توآ مجلسه نفوراً وكراهية لسماعهم دعوة التوحيد فى الألوهية لأنها أشد ما يصدمهم فيما يعتقدون) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى : إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً (هؤلاء لا تنتظر – أيها الرسول صلوات الله عليك – منهم : أن يستجيبوا لدعوتك ، ولاتؤمل فيهم عونا لك يوما ما . فنفوسهم مريضة بالمادية . والله وحده يعلم سريرة هذه النفوس عند ما يكونون فى مجلس تلاوتك للقرآن ، أو عند ما يناجى بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم سرا إلى بعض بعيداً عنك . فعند ما يستمعون إليك يهزأون بك وبما تتلوه فى مجلسك . وعند ما يناجى بعضهم بعضاً بعيداً عنك لا يصفونك إلا بأنك مسحور تختلط عليك الأمور فيما تقول وفيما تتحدث به ، وينصحون من يتبعونك بالانصراف عنك) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلايستطيعون سبيلا (وفى وصفهم إياك بالبعد عن الحق والصواب فيما تقول وتتحدث به فى مجلسك ، يصورون وضعك وشأنك على نحو يبدو مثلا للحمق والبطلان وبذلك يضلون عن الطريق السوى ، ولا يمكنهم حمقهم هذا من كشف السبيل إلى الحق فى ذاته) .



وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ
حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ
ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

وتأتى السورة الآن إلى إبطال ادعاء آخر لمشركى مكة، وهو ادعاء يعتبر ظاهرة من ظواهر الاتجاه المادى فى جملة ذلك : الادعاء الآخر هو : إنكار البعث ، وبالتالى إنكار اليوم الآخر . وإنكار البعث يعتبر حجراً أساسياً فى وجود المادية وقرينة فى وجودها : إنكار الألوهية . « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ (تحكى السورة عن هؤلاء المشركين بمكة أنهم ينكرون فى صورة استفهام ، أو يستكبرون على قدرة الله : أن يعيد الموتى إلى الحياة من جديد فتنبعث فيها الحركة والمرونة بعد تفتتها وتحول أجسامها إلى عظام يابسة ، ولا يتصورون أن قدرة الله تفوق ما يدور بنفوسهم من شك أو إنكار ، وعلى فرض أن أجسام الموتى لا تتحول إلى عظام ليس فيها صلابة بل تحولت إلى حجارة أو حديد مما هو أشد صلابة وأبعد عن قبول المرونة . . بل تحولت إلى خلق آخر هو أعظم وأبعد فى الصلابة فى تصورهم عن الحجارة أو الحديد فسيزداد شكهم وإنكارهم فى بعثها وإحيائها ، ويسألون الرسول عليه السلام فى تحد عن إمكان إعادتها ، ويقولون له منكرين : من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة

والجواب على إنكارهم فى غاية اليسر والوضوح ، وهو أن الذى خلق هذه الأجسام أول الأمر فى الحياة الدنيوية للإنسان، هو ذاته الذى سيعيدها. وهم لا ينكرون إذا ما سئلوا عن خلق الكون كله وفى ضمنه الإنسان : أن الله هو الذى خلقه) : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »(١) (وإذن ليس هناك معنى إلا التحدى لاستبعاد أن يعيد الله الأجسام وما لها من حركة وحياة فى اليوم المعلوم) « أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم » (٢) فسينغضون إليك رءوسهم ، ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً (ومع أن المنطق واضح فى تبديد شكهم وإنكارهم للبعث فى الآخرة إلا أنهم مع ذلك لو واجههم الرسول عليه السلام بهذا المنطق لحركوا رءوسهم إليه سخرية وتمادوا فى إعلانهم عن زيادة الشك والإنكار بالسؤال من جديد عن الوقت الذى تتم فيه إعادة أجسام الموتى إلى الحياة ، والرسول عليه السلام لا يملك أن يحدد لهم الوقت ، لأن تحديده مرهون بإرادة الله وحده. ويجوز أن يكون تحديده قريبا ، على خلاف ما ينتظرون): يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (وسيكون وقت البعث هو ذلك اليوم الذى لا يتخلف فيه إنسان عن طاعة الله مرغما عليها . وسيظن المشركون عندئذ أن إقامتهم فى الدنيا من فرط ما يرون من هول هذا اليوم ، كانت إقامة قصيرة الأجل . فيوم البعث هو يوم الجمع والهول) .

* * *

---

(١) لقمان : ٢٥ . (٢) يس : ٨١ .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ
فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ
بِالْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ
بِالْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا
الرُّءْيَا الَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

ورغم أن ادعاءات المعارضين لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة البطلان، وظاهر فيها التحدى ، فإن القرآن ينصح الرسول — عليه صلوات الله — بأن يطلب من أصحابه — وهو طبعا قدوة لهم — إن هم جادلوا هؤلاء المعارضين من المشركين أو من أهل الكتاب : أن يجادلوهم بالحسنى ويقولوا لهم التى هى أحسن . أى يطلب إليهم أن يملكوا أمر أنفسهم فى الحديث معهم ، وألا ينفعلوا فيثيروا غضبهم ويحملوهم على التمادى أو اللجوء إلى العنف معهم وهم — أى المؤمنون — لم يبلغوا بعد فى القوة المادية مركز

التحدى لأعدائهم : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا (وما يطلب من الرسول هنا — عليه صلوات الله — من صحابته فى وجه معارضيهم فى المجادلة أو فى الحديث معهم بوحى من الله ، قائم على أساس : أن النفس البشرية يراودها الهوى ، وقد يحملها على الانفعال أو ارتكاب حماقة من الحماقات — على الأقل — فى القول ، فهوى النفس — أو شيطانها — يداخلها بالإثارة ، وتلك طريقته لأنه عدو الحكمة والتريث فى الإنسان. ومصلحة المجتمع الإسلامى آنئذ تقضى « بالتقية » وليس « بالمواجهة » وتلك سياسة القيادة الرشيدة فى المجتمع الإنسانى ، أى مجتمع إنسانى فى أى عهد) ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، أو إن يشأ يعذبكم (والقول الحسن الذى يطلب من المؤمنين أن يقولوه لأعدائهم وقت ضعفهم المادى والعددى هو على نحو ما تشير به هذه الآية : « ربكم أعلم بكم : إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم» فهو قول لين من جهة ، وينطوى على حكمة من جهة أخرى . وهى حكمة عدم المواجهة بما يشعرون منه بالتحدى لهم . هو قول كما يحمل الإنذار والتحذير ، يحمل كذلك الرحمة والمغفرة) وما أرسلناك عليهم وكيلا (وفوق أن مثل هذا القول ، فى مثل هذا الوقت للمجتمع الإنسانى فى بدء قيامه وتطوره يمثل الحكمة فى السياسة مع الأعداء فإن الرسالة التى أرسل بها الرسول محمد عليه السلام — وكذلك كل رسالة لرسول سبق — لم تجعل من مهمة الرسول إطلاقا : حمل الناس على الإيمان ، ولا إكراههم على نمط معين فى الاعتقاد أو السلوك ، فالرسالة ليست وكالة وإنابة عن الله فى السلطة على هذه الأرض . وإنما هى دعوة وتوجيه فحسب . ومن هنا ليس من المقبول أن يدعى : أن فى الإسلام حكومة إلهية . والأمر الذى يتلاءم مع منطق الرسالة : هو أن الحكومة فى المجتمع الإسلامى هى حكومة إنشائية تتخذ من دعوة المصطفى عليه السلام أساساً للحكم ، تصيب

وتخطىء فى تطبيق أسس هذه الدعوة فى الحياة الإنسانية ، شأن الإنسان فى اجتهاده ، دون أن يحمل القرآن وزر الخطأ فى التطبيق أو فى الفهم) . وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبوراً (ما تقدم من موقف هو ما يجب أن يتخذ إزاء المشركين الوثنيين المعارضين . أما المعارضون من أهل الكتاب فهم يعلمون جيداً : أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يجرى وما يقع فى الكون كله من أحداث . . وكذا من يختارهم من البشر رسلا . كما يعلن جل جلاله : أنه رغم اختياره واصطفائه لجميع من أرسلهم من رسله ، فهو يفضل بعضهم على بعض . وإذا كان كتاب داود ، وهو الزبور قد سجلت فيه البشارة بالرسول محمد عليه السلام ، وبأن الله سيمكنه وأمته من الخلافة فى الأرض ، وأعيدت هذه البشارة فى القرآن نفسه فى قول الله تعالى « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** »(١) فإن تفضيل الله للأنبياء بعضهم على بعض لا يخرج فضلهم عن إطار البشرية ، ولا ينقلهم بهذا التفضيل إلى دائرة الألوهية. ولذا : كان تأليه أهل الكتاب من اليهود لعزير . وتأليه أهل الكتاب من النصارى للمسيح ليس بتجاوز حدود التفضيل الذى شاءه الله لبعض الأنبيـاء على بعض وهذا التجاوز فى التفضيل تصحيحه فى قول الله تعالى : « **وقالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بافواههم — أيضاً — يضاهئون — به — قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح — عيسى — بن مريم ، وما مروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** » (٢) قل ادعوا الذين زعمتم

---

(١) الأنبياء : ١٠٥ .

(٢) التوبة : ٣٠ — ٣١ .

من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون، يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذورا . (وهنا يوجه القرآن الكريم فى هذه السورة الآن، رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يتحدى معارضيه من أهل الكتاب إن هم أصروا على الشرك بادعاء ألوهية من ألهوه من الرسل ، فيطلب إليهم أن يستنصروا بمن ألهوه فى إزالة ما وقع أو ما يقع عليهم من أضرار الفقر أو المرض ، أو فى تحويلها من فرد إلى آخر ، أو من جملة من الأفراد إلى جملة أخرى . إنهم سيرون أن هؤلاء الرسل الذين ألهم التابعون لهم : هم أنفسهم يسعون إلى القربى من الله ورجاء رحمته ، والخوف من عذابه: فكيف يسعون إلى القرب منه وابتغاء رحمته ويكونون له فى الوقت نفسه آلهة أندادا؟

ويحكى القرآن موقف عيسى عليه السلام من ادعاء تألهه فى قول الله تعالى: **« وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم ! ! : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »** (١) .

إن عذاب ربك كان محذوراً (والخوف من عذاب الله يجب أن يكون حقيقة نفسية ، وبالأخص لدى من يرسل من الرسل) . وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، أو معذبوها عذاباً شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا (إذ عذاب الله حقيقة واقعية فى تاريخ المجتمعات

---

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧

البشرية ، فالمجتمع الذى لا يفنى أفراده بالموت يقضى عليهم بالعذاب الشديد عن طريق الكوارث الطبيعية كعقاب لهم على كفرهم برسالة الرسول الذى أرسل لهم) . وما منعنا أن نرسل بالآيات إلى أن كذب بها الأولون (ومشركو مكة فى تحديهم للرسول عليه الصلاة والسلام بطلبهم الأمارات المادية على صدقه فى رسالته ، لم يستجب الله سبحانه لما طلبوه ، لأنه يعلم أنهم سيكذبون بها ، كما كذب السابقون فى المجتمعات البشرية قبلهم ، وفى مواجهة رسل سابقين ، وقد سجلت هذه السورة — سورة الإسراء — .. الأمارات المادية التى طلبها هؤلاء المشركون ، فى قول الله تعالى فيما يأتى : « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء ، كما زعمت ، علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا(١)** » . وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً (وهناك مثل على موقف التكذيب من المعارضين للآية المادية — لو استجاب النداء — للرسول الذى طلبت منه ، فقد سبق مشركى مكة زعماء ثمود ، وأرض ثمود لا تبعد عنهم ، فهى فى شمال شبه الجزيرة العربية وعلى صلة بالعراق والشام معا ؛ فهى ترى وتشاهد للمكيين عند رحلاتهم إلى الشمال .. هى مبصرة لهم وقد كانت الآية المادية التى جاءت لزعماء ثمود هى ناقة صالح ، ومع ذلك كفروا برسالته . وعقروا ناقته . ولم ينفع معهم أن استجاب الله لما طلبوا . ثم إن الآية المادية التى يرسلها الله لرسوله هى فى

---

(١) الاسراء ٩١ — ٩٤

الواقع تنطوى على إنذار للمعارضين ، إن هم أصروا على معارضتهم) . وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس، والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا (وأنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — تذكر ماوقع فى غزوة بدر وما تم فى شأن إعلان شجرة الزقوم كعقاب للكافرين . فهما أمارتان ماديتان تدلان على نصرة الله لك وللمؤمنين، وتنطويان فى الوقت نفسه على ابتلاء واضح للمشركين المعارضين لك ، ومع ذلك لم تزدهم هذه وتلك إلا طغيانا كبيرا ، وذلك بالتمادى فى المعارضة والسخرية برسالتك . والادعاءات الباطلة المغرضة، ففى غزوة بدر كاشفك الله سبحانه مقدماً بأمر النصر فيها ونقلت أنت ذلك إلى المؤمنين : « **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟** (١) » وبهذا المدد يحيط بأعدائك من المشركين . وعندئذ تلزمهم الهزيمة لا محالة . وقد كان هذا النصر ابتلاء لهؤلاء المعارضين المشركين، وفى اعلان الله لشجرة الزقوم كعذاب للكافرين ما يعتبر ابتلاء لهم كذلك وقد أعلن ذلك فى سورة الصافات — والوحى بها مبكر عن سورة الإسراء هذه — فى قول الله تعالى : « **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ؟ إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم** (٢) (سواء أكان الابتلاء بها عن طريق أنها شجرة خضراء تنبت فى قاع الجحيم فلا تحرقها نار جهنم أم كان بسبب أن الأكل منها جزاء للكافرين الذين

---

(١) آل عمران : ١٢٤ .

(٢) الصافات : ٦٢ - ٦٧ .

نهجوا نهج آبائهم فى الكفر والضلال) « ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون(١) » .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

ومعارضة أى رسول يرسل ، ولرسالة الله فى الهداية بين الناس فى أى عهد جزء لا يتجزأ فى طبيعة الحياة البشرية .فالدنيامنذ نزول آدم إلى الأرض. إلى يوم البعث ، هى دار ابتلاء واختبار للايمان والكفر معا . والشر والخير موجودان مقترنان فيها.فقد استجاب الله لإبليس فى ممارسة إغرائه أتباعه باتباع الهوى والشهوة ، دون العقل والحكمة طوال الحياة الإنسانية على هذه الأرض، ولنذكر مجمل قصته : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا (فقد شاء الله اختبار الملائكة فى طاعته، كما شاء اختبار الإنسان فى شخص آدم وحواء فى طاعته كذلك، والملك والإنسان هما وحدهما اللذان اختبرا فى طاعة الله ، وليس هناك موجود آخر معهما .

---

(١) الصافات : ٦٨ – ٧٠

أراد الله امتحانه فى طاعته ، فاختبر الملائكة فأمرهم بأن يسجدوا لآدم ، والمعروف أن الملائكة خلقوا من نار صافية ، بينما الإنسان فى شخص آدم خلق من طين ، والنار أخف فتعلو وترتفع . والطين أثقل فيرسب وينجذب إلى أدنى . وأطاع الملائكة ربهم فيما أمرهم به هنا من سجود لآدم ، بينما واحد منهم ، وهو إبليس ، تخلف عن السجود ، مبديا أنه لا يمكن أن يسجد لمن هو أدنى منه فى الخلق ، ولم يتذكر أن الله زود الإنسان بالعقل وكرمه بذلك على المخلوقات : « **ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** (١) » . « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » (وعندما عصى إبليس ربه طرده من جنته : « **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** »(٢) وعندئذ سأل إبليس ربه أن يمهله إلى يوم القيامة ، على أن يقوم بوظيفته فى الاغراء بين الناس حتى هذا الموعد ، وهو متأكد أن نشاطه فى الإغراء سيكون واسع النطاق ، وأن الذين سيتبعون غوايته سيكونون أكثرية بينهم ، وأنه سيبعدهم إبعاداً تاماً عن الإيمان برسالة الله) . قال اذهب ، فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (وعلى أثر سؤاله استجاب له الله سبحانه ، وأذن له فى مباشرة غوايته ، على أن يكون هو ومن يتبعونه من الناس على علم : بأن جهنم هى الجزاء له ولهم على السواء . وهو جزاء مستكمل يفى تماماً بالعقاب) واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان

---

(١) الاسراء : ٧٠ .　　(٢) الأعراف : ١٣ .

إلا غرورا ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا (كما أذن له أن يستخدم ما يشاء من وسائل الغواية فى تحريك الناس وجذبهم إلى تبعيته . أذن له أن يستخدم النداء .. والقوة المادية بأنواعها المختلفة . . وإلغاء الملكية الخاصة والمشاركه فى الأموال ، وكذلك فى الأولاد، والوعود بالغد الأفضل ، علما بأن وعد الشيطان ليس إلا خداعا ، وهذه الوسائل بجملتها يستخدمها نظام الحكم القائم على المادية فى وقتنا الحاضر ، فى المجتمعات البشرية وهو ذلك النظام الذى ينـــكر الألوهية والبعث معاً ، ولا يؤمن إلا بالحياة الدنيا وحدها . فهو يستخدم فى تضليله وسائل الإعلام — وهى متنوعة — فى التسلط على الناس ، ويستخدم القوة الآلية والبشرية فى حمل الناس على الإلحاد ، ويلغى الملكيات الخاصة ، ويجعل المال ملكا عاما للتحكم فى لقمة العيش ، وبالتالى لجعل الناس أتباعا لوسوسته . ويكثر من الوعود يوماً بعد يوم ، وسنة بعد أخرى ، ويخطط للخمس السنوات ، وللعشر سنوات ، واعداً بجنة الله على الأرض فى اليوم القريب الموعود ، وهو يوم لا يأتى أبدا ، وكأن هذا النظام يجسم اليوم الشيطان ووسوسته ووسائله العديدة لإبعاد الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر . وكأنه هو شيطان المجتمع ، إذ لا فرق بينه وبين شيطان الأفراد ، فى أن كلا منهما يدعو إلى الإلحاد والتحدى ، إلا فارق واحد . وهو أن شيطان المجتمع هذا ، وهو هذا النظام — أشد عتوا ، وأكثر فتكا ، وأبلغ أثرا فى غرس الشر وحمل الناس على الكفر ، وإرهاب الناس بالقوة ، والتحكم فى الأفراد جميعاً فى وقت واحد، سبحان الله . كيف أن هذا النظام يجعل الشيطان كمصدر للشرور — حقيقة مشاهدة يتقرب منها ضعاف الإيمان من البشر وتروجها قوى الظلم والاستبداد ؟ إن إبليس إذا كان من الملائكة فأعوانه اليوم من البشر : (**إنا جعلنا الشياطين**

وليا، للذين لايؤمنون(١)) . ولكن إرادة الله إذا كانت قد سمحت لإبليس في أن يباشر غوايته وينشر الشر والضلال ، والإلحاد ، والتحلل والفساد ، فإنها لاتسمح لغوايته أن تمتد من ضعاف النفوس إلى من وصفهم بعباد الله ، فقد وعد سبحانه بحماية عباده هؤلاء ووقايتهم من سلطانه ونفوذه وأثره ، ووعد الله لايرد وأنعم به أميناً وذا ولاية وكفالة : «وكفى بربك وكيلا » .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

ولوجود الشر مع الخير في هذا الوجود إلى – يوم البعث – وكان الشر والخير معا في طبيعة الانسان كذلك ، ولذلك من خصائص الطبيعة البشرية إذا لم تأخذ نفسها باتباع هداية الله في الايمان والسلوك ، والتفكير : أنها تميل إلى الشر ، ولا تذكر نعمة الله عليها فتسلك سبيل الخير كماتدعوها هداية الله. وإذا عاشت في أزماتها فترة وذكرت الله في هذه الأزمات ، فإنها فور أن تمر

---

(١) الأعراف : ٢٧

عليها الأزمة تعود من جديد إلى مباشرة الشر وإنكار نعمة الله عليها فى أن فرج عنها أزمتها : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله، إنه كان ربكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفوراً (فرحمة الله بالناس هى التى تدعوه أن يخلق من اتجاهات الريح ما يساعد على سير الفلك فى البحار ، لتحصيل المنافع التى يبتغيها الانسان من البحر، سواء فى قطع المسافات الطويلة، بين مكان وآخر أو فى صيد الأسماك ، أو فى استخراج الحلى منه ،وما يبتغيه الانسان ويحصل عليه عن طريق الفلك هو من نعم الله عليه ، والانسان فى الفلك قد يتعرض لمخاطر الغرق فى الماء . فإذا تعرض لأى من المخاطر، وهو فى الفلك فإنه لايذكر عندئذ إلا الله وحده ، ويغفل عما سواه : ما يدعوه نداً لله — تعالى عن ذلك علوا كبيراً ،ويذهب عن تصوره وخاطره. فى ذكر الانسان لله وحده عند المخاطر أمارة على أن الله صاحب الشأن فى الكون ، فى أعماق النفس لدى الانسان ، فإذا نجاه الله وأنقذه من مخاطر البحر ، عاد هذا الانسان من توه إلى الكفر بالله وبنعمه ، وإلى الايمان بالدنيا وحدها وبمتعها المادية ، ونسى فضل الله عليه فى إنجائه وإنقاذه وهذه الظاهرة هى خصيصة من خصائص الطبيعة البشرية التى لاترتبط بالايمان ارتباطا قوياً). أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لاتجدوا لكم وكيلا ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم، ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً ؟ (والانسان الذى يعود إلى سيرته الأولى بعد أن تزول عنه محنته وتنفرج أمامه أزمته بفضل الله عليه: هو إنسان قصير النظر . لأن الانسان لاتواجهه أزمة واحدة فى حياته .وإنما تواجهه أزمات

وشدائد عديدة . فإذا اجتاز أزمة الغرق الآن : وهوفى سفره فى البحر ، فإنه لايأمن أن تواجهه — وهو على البر — أزمة الموت بخسفه — تحت الأرض بفعل الزلازل ، أو بتأثير الرياح الشديدة التى تحمل الحصى الصغيرة ، وتغطى بها الكائنات الحية ، كما لايأمن من الغرق من جديد ، إذ يعود إلى الفلك مرة أخرى فى وقت تشتد فيه الرياح القاصمة التى تكسر كل شىء فى طريقها. وفى هذه الحالات لايجد واقيا يقيه الموت ، ولايجد حتى من يتوجه إلى الله بطلب أو سؤال عندما يستعمل حقه فى عقاب الكافر ، وجزاء النفس التى تسارع إلى نسيان فضل الله ، بعد أن تلمسه فى حياتها . لأنه لا يجرؤ مخلوق على مساءلة الله فيما يفعل) ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (ويجب على الإنسان فى هذه الحياة ألا يقف عند أزمة فيذكر فيها الله وحده ، ثم يغفل عن ذكره بعد ذلك ، ويكرر هذا الموقف كلما اشتدت به حاجة إلى النجدة والخلاص ، بل عليه أن يعرف أن الله حبا هذا الإنسان بفضائل عديدة : كرمه ، فأودع فيه العقل . ويعاونه أينما وجد فى : البر ، والبحر ، والهواء. ويرزقه رزقاً حسنا من طيبات نعمه .. وفضله على كثير من المخلوقات بأن جعل بعضها فى خدمته وأمر البعض الآخر أن يسجد له) .

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

وإذا كان بعض الناس ، أو كثير من الناس ، لايذكر الله إلا فى الشدة ،

وينساه فى الرخاء فيجب أن تذكر أيها الرسول صلوات الله عليك : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا (فهذا اليوم هو يوم البعث ، أو يوم القيامة والجزاء . فتذكر هذا اليوم ، وتبليغه للناس ضرورة من ضرورات الرسالة، حتى يعرف كل إنسان مصيره ، ويعرف أن هذا المصير مرتبط ارتباطا وثيقا بنوع العمل الذى يباشره فى حياته الدنيا ، وكل عمل للإنسان هو مسجل له فى كتاب خاص به ، سيطلع عليه يوم الجزاء ، وأصحاب الميمنة، وهم: الذين يعطون كتبهم بيمينهم ، ولا يظلمون شيئا ما فى جزائهم . بل يوفى لهم حسبما وعدهم الله به ، والآخرون وهم : أصحاب المشأمة، وهم: الذين أعماهم الله فى حياتهم الدنيا عن هدايته فى رسالته مع الرسل إلى الناس فى كل عهد ، فستظل الحيرة تلازمهم فى آخرتهم من هول الجزاء الذى يواجههم هناك).

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

والرسول عليه السلام برسالته لم يخرج بها عن خصائص الطبيعة البشرية، فهو بشر — يجوز عليه ما يجوز على البشر . ومساندة الله إياه هى التى تجعله لا يخرج عن موقف الحق ، ومهما كانت الصعاب ،أو كانت الاغراءات ،

والدعاة إلى الله بعده كلما ثبتوا فى مواقف الحق كلما اقتربوا من قدوته عليه السلام فى ذلك : ودعوة الرسول صلوات الله عليه بمكة لم تكن أمراً هينا . وإنما أحاطت بها ظروف تجعل الاستمرار فيها شاقا على النفس البشرية العادية إذ الرسول عليه السلام كان بين قرابته ، وهم زعماء قريش ومكة فى وقت واحد . ويرى هؤلاء الزعماء فى دعوته تقويضا لزعامتهم من جهة ومساواتهم بالآخرين من أتباعهم من جهة أخرى . فضلاً عن تغيير كثير من عاداتهم وتقاليدهم وما يعبدون من دون الله ، ولذا كانت عداوتهم له شديده وقاسية ، وكانت مؤامراتهم عديدة ومتكررة ، وكانت تحدياتهم وعنادهم ومعارضتهم لمبادىء دعوته تبدو فيها الحماقة ، بمقدار ما يبعد عنها المنطق .

لهذا كان ينزل الوحى من وقت لآخر يكشف عما تتجه إليه النفس البشرية فى مستواها العادى من الميل إلى قبول الإغراء أو الخروج من الحرج ، فلا تلتزم الطريق الشاق بصفة مستمرة فيما تسلكه أو تدعو إليه ، لافتا نظره عليه السلام إلى منزلته عند الله . وهى منزلة عظيمة ، كما تدل على رفعة الشأن ، تشير إلى أن الخطأ منه المساوق لخطأ النفس العادية ، لو وقع منه يستوجب ضعف العقاب . كما يطمئنه إلى أن الله معه فى أوقات الشدة ، ولن يتركه وحده بطاقاته البشرية عندما يزداد أمر التحدى له ، وما جاء فى هذه الآيات هو من قبيل لفت نظره عليه السلام وتأكيد اطمئنانه لمعاونة ربه إياه : وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا (إن أعداءك سيعملون كل مافى طاقتهم لاغرائك وخداعك ، مستهدفين تحويلك عن الدعوة بما أوحى به الله إليك ، إلى مايرغبون هم فى إعلانه منك لصالحهم . وعندئذ تكون قد كذبت على الله بما أعلنته لهم ، وهو ليس لله ، وفى الوقت نفسه يتوددون إليك ويتخذونك صديقا لهم كثمن لما أعلنت) .

ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (ولكن إرادة الله معك ، ولذا مهما صنعوا من إغراء ، ومهما ظنوا أنك قد أصبحت قريبا منهم ، وعلى شيء من الولاء لهم ، فالله بجانبك ويثبتك فى طريق الحق وحده ، ويبعد إغراءهم عنك) . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً . (فأنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — ، برعاية الله لك ، وبتثبيته إياك فى طريق الحق ، بعد أن اختارك للرسالة لم تكن ذا منزلة عادية عنده . فصاحب هذه المنزلة التى لك عند الله إذا استجاب لإغراء الأعداء بعد كل هذه النعم من الله عليه ، فعقابه سيكون مضاعفا فى الدنيا وفى الآخرة على السواء وعندئذ لو حل العقاب به لايجد من يحميه منه لأنه عقاب الله العزيز الذى لايوجد فى كونه من يرد مشيئته بعقاب أو ثواب) . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها . وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا (ولا تنتظر أيها الرسول — عليك صلوات الله — : أن يهمل الله شأنهم معك ، أولا يأخذهم بشدة إن هم اشتدوا عليك وخرجوا من نطاق التحدى بالادعاءات الباطلة إلى التحرش أو الاعتداء على ذاتك اعتداء ماديا . فإن هم حاولوا نفيك وإخراجك من الديار عن طريق إزعاجاتهم المتكررة لك فالله سبحانه لايبقيهم فى هذه الديار لحظة بعدك لو خرجت . وتلك سنته جلت قدرته مع الرسل السابقين عندما كانوا يتعرضون للنفى والإخراج من البلاد . وسنة الله لاتتغير إطلاقا لأنه صاحب الكون ، وصاحب التدبير فيه ، وبذلك يجب أن تسكن نفسك ، وتستمر دعوتك فى غير انزعاج أو قلق) .

* * *

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ
كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى
مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

وتنتقل السورة الآن من تطمين الرسول عليه السلام ، على رعاية الله إياه ، ووقوفه بجانبه فى الأزمات والشدائد التى يتعرض لها فى طريق دعوته: إلى نصحه بالعمل على صفاء الذات والبلوغ فى هذا الصفاء مستوى محموداً عند الله ، وبذلك تزداد عزيمته فى مواجهة التحديات . وعندئذ يعلن الحق فى غير خوف أومداراة : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . (وفى سبيل صفاء الذات والبلوغ فية مستوى محموداً عند الله طلب إلى الرسول عليه السلام أن يؤدى الصلاة فى أوقاتها من زوال الشمس عند الظهر إلى ظلمة الليل ووقت العشاء ، ثم فى وقت الفجر ، أى يؤدى صلاة الظهر والعصر ، فى وقت النهار ، والمغرب والعشاء فى وقت ظلام الليل ، وصلاة الفجر فى وقته . ويزيد على هذه الصلوات الخمس المفروضة صلوات أخرى نافلة يؤديها بالليل ، تاركا النوم فيه لإقامتها . والصلاة المقترحة هنا

ليست السبيل فحسب إلى صفاء النفس وكسب رضاء الله . بل هى طريق كذلك إلى تثبيت الانسان فى دعوة الحق وعدم الاهتزاز أو القلق أمام إغراء المعارضين وتحدياتهم . وهكذا إذا وعد الله رسوله عليه السلام هنا وامتن عليه بأنه ثبته فى مواجهة إغراء المكيين الماديين ، فإن تحقيق وعد الله مرتبط بعمل الانسان نفسه وبسعيه فى سبيل إبعاد المغريات عنه . ولا يكون ذلك إلا بالعمل على صفاء الروح بتذكر المولى جل جلاله فى كل وقت يعيشه فى النهار أو الليل ، والوقوف بين يديه فى صلاة ودعاء والرسول علية السلام بصلاته وببلوغه المستوى المحمود عند الله فى صفاء الذات يستطيع أن يباشر الرسالة وهو مطمئن النفس متوكلا على الله ومستعيناً به فى أن يدخله مدخل صدق فى أدائها ، وبأن يخرج منها مخرج صدق بأدائها على الوجه المرضى ، وأن يعطيه الحجة الفاصلة فى دعوته إياها وقبول الناس لها . وأن تكون لديه الصلاحية كذلك لتلقى وحى ربه بالإذن له فى إعلان الحق وظهوره ، واندحار الباطل وزهوقه ، فشأن الباطل أن يضمحل ولايبقى عندما يظهر الحق ويعلو ، والقرآن يكشف فى السورة هنا عن اتجاه النفس العادية ، كظاهرة عامة بشرية الى الوقوع تحت تأثير الاغراء . وعن سبيل الوقاية من هذا الإغراء بصفاء النفس وكسب مستوى فى صفائها يجعلها ثابتة فى مواجهة التحدى ، والفتن والمكايد والأكاذيب ، وعن أن الصلاة لله فى أوقات عديدة فى نهار المصلى وليله هى الطريق الى هذا الصفاء .. القرآن بتوجيهه هذا يقدم العلاج والشفاء للنفس البشرية —من ضعفها الذى يتجلى فى القلق والاضطراب أماما لمغريات أو التحديات ، وبتقديم مثل هذا العلاج يكون القرآن رحمة للمؤمنين بالله . لأنه أرشدهم الى الطريق السوى فى الوقوف فى وجه التحديات ، وفى كسب النصر على الإغراء ، وفى الدعوة الى الحق والإعلان عنه فى مواجهة الباطل . كما يكون فى الوقت نفسه

سبباً فى زيادة خسارة المعارضين من الجاهليين والماديين . لأنهم باعتدائهم وظلمهم أولا لأنفسهم بسبب معارضتهم للحق قد خسروا اتباع التوجيه السليم للإنسانية ثم ببعدهم عن مثل ما يقدمه القرآن من علاج لضعف النفس البشرية فى المواقف والمواجهة – على نحو ما يوجد هنا الآن فى سورة الاسراء – تزداد خسارتهم وتخف موازينهم . وما نزل من القرآن إذن من شفاء ورحمة للمؤمنين وزيادة خسران المعتدين الظالمين يتصل بتوجيه النفس البشرية إلى الطريق السليم . والشفاء الذى جاء به القرآن هنا هو : إقامة الصلاة وكسب صفاء النفس عن طريقها . وهكذا الصلاة هى عماد الاسلام والمصدر الأصيل للقضاء على الضعف فى ذات الإنسان وللوقوف بجانب الحق مهما كانت الرياح والعواصف المضادة غير مواتية لاعلانه . بالصلاة تصفو النفس من ظلمة الهوى . . والصلاة تثبت النفس وتطمئن فى مواجهة الأحداث والأزمات . . وفى الصلاة علاج النفس وشفاؤها من التردد وقبول الاستسلام للقوى المعارضة والمعتدية ويبدو أن الوحى بهذه الآيات كان مبكراً فى الوحى المكى عند مباشرة المصطفى صلوات الله عليه الرسالة) .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

ولكى يكون الرسول عليه السلام على بينة من خواص الطبيعة البشرية وهو يباشر دعوته الى الرسالة ويواجه رفضها مرة وقبولها مرة أخرى تعرض سورة الإسراء قول الله تعالى : « وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى

بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوسا (فالانسان بحكم طبيعته البشرية ، وهى مكونة من العقل والغرائز مصدر الشهوات والأهواء معاً : ينكر الله وقت رخائه وحال وجوده فى جو من نعم الله يستمتع به . لأن إغراء النعم يستهويه ويعتقد خطأ عندئذ بوقوعه تحت خداع هذه النعم : إنها لاتزول عنه .وهو اذ ينكر الله فى ظرفه القائم ينكره فى استكبار وصلف . ولكن سرعان ما يتملكه اليأس وتغلب عليه الحيرة إن زالت عنه هذه النعم ، ويبدو هزاله وضعفه وتملقه ومذلته : إنه يطغى بالنعم ،ويذل عند فقدها: من الضد الى الضد مما يدل على أن الهوى يغلب عليه فى حياته وتكييف مواقفه).
قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا (ومن أجل أن الطبيعة البشرية يغلب عليها الهوى فالناس كلهم ليسوا سواسية فى السلوك والاتجاه . فنهم من تسود لديه الحكمة على هواه بينما الكثرة تسير فى طريق الهوى . والذين تسود لديهم الحكمة أقرب الى قبول هداية الله فى رسالة رسوله . والله وحده هو الذى يعلم بمن هو أكثر استعداداً إلى قبول الهداية وبأن سبيله فى حياته أحسن السبل الموصلة اليها . ولذا فليس من مهمة الرسول – أى رسول – حمل الناس على قبول الإيمان . وتنحصر هذه المهمة فى الدعوة إليه ودون يأس، مهما اشتد أمر المعارضين والرافضين، فالكل يعمل طبق ما يغلب عليه من اتجاه تأثر به طالما هم جميعاً ليسوا أصحاب اتجاه واحد وشكل لايتنوع) .

***

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ
وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ
أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

وعلى عادة الوحى المكى فى السوره المكية تعرض سورة الإسراء الآن إلى آخرها : بعضاً من ادعاءات المشركين المكيين — وهم الجاهليون أو الماديون — وتوضح أوهامهم التى نسجوا منها هذه الادعاءات . فتعرض للقرآن وتشكيكهم فى صلاحيته كمعجزة دالة على الرسالة . . ولعدم اعترافهم برسالة المصطفى عليه السلام لأنه بشر ، وليس ملكا . . ولإنكارهم البعث واليوم الآخر . . ولشحهم وبخلهم كظاهرة من ظواهر الاتجاه المادى . . ولادعائهم البنوة لله —تعالى عن ذلك علواً كبيراً — فتقول: ويسألونك عن عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (أى يتشكك هؤلاء المكيون فى صلاحية القرآن كمعجزة من عند الله دالة على

رسالته عليه السلام . ولكن يجب أن يرد عليهم بأنه كتاب من عند الله وأنتم أيها الماديون ليست لديكم الاستطاعة فى أن تحكموا عليه حكما سلبيا . لأن معرفتكم معرفه ضيقة ، وحدودها لديكم محدودة . وبعض المفسرين يذهب إلى أن « الروح » هنا ليست القرآن ، وإنما هى الروح الانسانية . ولكن الجدل حول الروح الانسانية فى كونها جوهراً أو عرضاً ، وفى استقلالها عن البدن ، وكونها أزلية أبدية أو كونها تفنى بفناء البدن كما تنشأ معه . . وغير ذلك : هذا الجدل حولها اقتحم الفكر الاسلامى بعد ترجمة الفلسفة الاغريقية من السريانية واليونانية إلى اللغة العربية ، ولم يكن على عهد الرسالة ، وفى بداية الوحى بالذات فى مكة . كما أن الآيات السابقة واللاحقة التى تحيط بقوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » .. ترجح ترجيحاً واضحاً أن تكون الروح هى القرآن . فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى : « وننزل من القرآن » . . وجاء بعدها قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . (واستمرت الآيات التالية بعدها فى توضيح : أن إنكارهم للقرآن وهم من أوهامهم ، وتعلقهم بالمعجزات المادية أمر لايحملهم على الايمان لوجاءت هذه المعجزات ، لأن إعراضهم عن قبول الرسالة لايرجع إلى نقص فى الدليل والحجة وإنما إلى الحرص على بقاء الزعامة بين زعمائهم). ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ، ثم لاتجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك ، إن فضله كان عليك كبيراً (وآية أن القرآن كتاب من عند الله أوحى به إلى الرسول عليه السلام : أن الله جلت قدرته يمكن إذا شاء أن يقطع الوحى به عنه ولا يستطيع الرسول عندئذ أن يجد ما يساعده على استمراره ، لأن إرادة الله نافذة وفوق كل إرادة فى الوجود ، وفضل الله على الرسول محمد عليه السلام — وهو فضل كبير — وهو وحده الذى كان سبباً فى اختياره

للرسالة — وفى رحمته به وبالناس كذلك ، فى استمرار الوحى بالقرآن إليه) . قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (على أن من جانب آخر ، مما يدل على أن القرآن موحى به من الله أن الكائنات المعروفة وغير المعروفة فى هذا الوجود لاتستطيع أن تأتى بمثل هذا القرآن مهما ظاهر بعضها بعضاً ، وتكتل بعضها بجانب بعض ، فموضوعية القرآن فى مبادئه ووصاياه ، وفى كشفه عن الطبيعة البشرية وتوجيهه لهذه الطبيعة ، تبعد تماما أن يكون واحد من المخلوقات ، أو كلها مجتمعة : صنعت هذا القرآن وألفته ، فهو فى كل ماجاء به متجرد تماماً للحقيقة من حيث هى حقيقة ، وللحق فى ذاته وبعيد عن التحيز لشعب أوفريق من الناس ، وخالص للإنسانية . ويستحيل أن يكون هذا التجرد والموضوعية ، وعدم التحيز — صادراً من مخلوق ما ، أو مخلوقات عديدة لأن المخلوق نفسه فى حيز ، وفى حدود معينة ، وفى بيئة خاصة ، وفى وقت معلوم ، مما يجعله متميزاً وغير مجرد ، وشخصياً وليس موضوعياً تماماً) ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً (ولكن تشكك هؤلاء الماديين المكيين — وكذلك أصحاب الاتجاه المادى فى أى عصر وفى أى مكان — فالقرآن لايتوقف على دليل أو حجة فالحجة قائمة والدليل واضح على صحة القرآن فى نسبته إلى الله تعالى . والقرآن ذاته أتى بتوضيحات عدة أصبحت مثلا فى وضوحها ، فى دعوة الناس إلى الإيمان به . مع ذلك فأكثرية الناس لايؤمن به . لأن لهم مصالح خاصة فى عدم الإيمان به أو لأنهم واقعون تحت إغراءات مادية أو تهديدات وألوان عديدة من الإرهاب والتعذيب ، وكان الكافرون به أكثرية فى العدد ، لأن استعداد الانسان للتميز والتأنى ، فى الفحص والمراجعة ،

ثم الإقناع والإيمان ، والثبات على موضوع الإيمان لا يوجد عند الأكثرية فى أى مجتمع أو فى أى شعب وأمة . ولذا : فالأكثرية دائماً تتبع القلة فى القيادة ، وتعجز عن أن تقود نفسها ، فضلا عن أن تقود غيرها . والأكثرية فى أى مجتمع ليس لها رأى ناضج ولاتعبر فى تصرفاتها وحدها عن اتجاه سليم : « **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** »(١) « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ (وفى الوقت الذى يتشكك فيه هؤلاء الماديون فى صحة القرآن ، وفى إعجازه كدليل على صدق الرسول عليه السلام فى رسالته ، يطلبون إليه بديلا عنه : دليلا ماديا يرونه ويشاهدونه وهذا الطلب مألوف من المادى فى كل وقت . لأن إيمانه قاصر على المحسوس وحده . وتقص هذه الآيات ماطلبه الماديون بمكة من رسول الله عليه السلام فطلبوا منه .

إما أن يفجر ينبوعا من الماء فى صحراء شبه الجزيرة العربية .

أو ينشىء جنة فى هذه الصحراء من نخيل وعنب ، تتخللها الأنهار .

أو يدعو ربه بأن يسقط عليهم عذابه جزاء كفرهم ، على هيئة قطع من البرد .

أو يدعو الله والملائكة معه للنزول حتى يرونهم ، كما طلب قوم موسى أن يروا الله جهزة من قبل . .

---

(١) الأنعام : ١١٦

أو يكون له بيت ليس على غرار بيوتهم فى مكة ، أن يكون من ذهب خالص .

أو يصعد هو إلى السماء للقاء ربه على أن ينزل بعد ذلك إلى الأرض ومعه كتاب منه يشهد بذلك .

وفى كل واحدمما طلبوا : اتجاه إلى تعجيزه وتحديه بما لايقدر عليه كبشر ، وعلاقته بربه لاتخضع لتمن منه أو رجاء منه . إنما تقوم على ما يراه سبحانه لمصلحة الرسالة والدعوة إليها . والله قبل غيره يعلم : أين توجد المصلحة . ومما ستذكره سورة الاسراء فيما بعد عن الآيات المادية التى أرسلت إلى فرعون وهى تسع ، يبدو أن طلب المكيين لمثل هذه الآيات لم يكن هدفه السعى إلى الايمان بالله وحده ، وإنما كان التعجيز فحسب . إذ رغم ماجاء به موسى من آياته التسع لم يستجب له فرعون، وأصر على كفره برسالته ، ثم ملاحقته هو وقومه حتى غرق هو وجنوده فى البحر . وإزاء ماطلب هؤلاء المكيون أوحى سبحانه إلى رسوله عليه السلام بأن يكون رده عليهم : أنه بشر ، يتميز بالرسالة فحسب . وتميزه بالرسالة لايعطيه طاقة فوق طاقة الآخرين من بنى الانسان) .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا
﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

وكما أن طلبهم إلى الرسول عليه السلام : أن يأتى لهم بآيات مادية تدل على صدقه فى الرسالة بدلا من القرآن ، لم يكن إلا تحدياً ، وليس صادراً عن

افتقارهم إلى حجة ، بعد رغبة أكيدة وخالصة لديهم فى الإيمان بمايدعو إليه كذلك امتناعهم عن التصديق بأنه رسول ، لأنه بشر . فهم ينكرون فى صفاقة الجاهلى : أن يكون الله أنزل من علمه وهدايته شيئاً على بشر : **« وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء »** (١).
ويسلك زعماؤهم مسلك الغوغائية فى منع عامة الناس من الإيمان برسالة الرسول فيقولون : **« ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** (أى بادعاء الرسالة) » (٢) . فيبين الله أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا من البشر : **« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم »** (٣) ومع ذلك لم تكن دعواتهم سوى دعوة التوحيد **« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا . . فاعبدون »** (٤) . وسورة الاسراء إذ تقول هنا الآن : وما منع الناس (أى المكيين المشركين) أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى (وهو القرآن) إلا أن قالوا (أى إلا ادعاء زعمائهم) : أبعث الله بشراً رسولا ؟ (إن محمداً رسول وهو بشر ؛ والله لا يبعث بشراً) . . هذه السورة إذ تقص ذلك فإنها تعيد ذات الادعاء لترد عليه فى الآية التالية : يقول تعالى « قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (أى إن من خصائص الملائكة فى طبائعها ألا تتجسد وبالتالى إذا وجدت على الأرض فلا ترى وتشاهد . ومن ثم لا تستطيع أن تباشر مهمة الرسالة ، وهى تبليغ الدعوة إلى الناس ، فالحياة الأرضية ليست حياة الملائكة ، وإنما تناسب الانسان وحده ، لأنه خلق من طين ، أى من مادة ترابية تنجذب نحو الأرض . بينما طبيعة الملك وهى الغاز تنجذب نحو السماء أى نحو السمو والارتفاع .

---

(١) الأنعام : ٩١ . (٢) المؤمنون : ٢٤ .
(٣) يوسف : ١٠٩ . (٤) الأنبياء : ٢٥ .

والآية إذ تعبر بالمشى والاطمئنان على الأرض ، تسلك مسلك الكناية فى التعبير عن المناخ والجو الطبيعى الذى يجب أن يعيش فيه الملك . وكأنها بذلك تقول : إن جو الأرض ليس جو الملك . ولذا يستحيل أن يكون الرسول للناس ملكاً) . قل : كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً (ولذا فوقفك أيها الرسول صلوات الله عليك من ادعاء المشركين هذا ، ومن وحى الله بالرد على هذا الادعاء : أن تنهى الحوار معهم وتدع الأمر لله وحده . فالله سبحانه هو الخبير بطبائع عباده ، وهو البصير بمهامهم وبما يكلفهم بمباشرته فى الحياة) .

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ
زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا
وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

وإزاء ما يكشفه القرآن هنا عن بطلان ما يدعيه هؤلاء الماديون بمكة إزاء القرآن كمعجزة للرسول عليه السلام ، وإزاء بشرية الرسول كمانع من تصديق رسالته ، يعلن : أن أمر الإيمان والكفر ، والهداية ، والضلال لا يعود إلى الحجة والإقناع بها بقدر ما يعود إلى مشيئة الله : « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه (فمن يشأ الله هدايته اهتدى

بمشيئته ، ومن يشأ الله بقاءه فى الضلال والحيرة لا يجد — فيما عدا الله — صديقا يعينه على الخروج من ضلاله وحيرته ، ومشيئة الله إذن هى التى توجه الانسان إلى الهداية ، وهى التى تتركه فى كفره وإلحاده،وإسناد أمر الهداية والضلال إلى مشيئة الله فى معرض إقامة الحجة على الكافرين يقصد به فى الدرجة الأولى اطمئنان الرسول عليه السلام على جهده فى الرسالة،وحثه على الاستمرار فى تبليغها كيفما كانت النتائج من سلب أو إيجاب . ولا يقصد بهذا الاسناد إبعاد المؤمن والكافر إطلاقا عن المسئولية الشخصية فى الإيمان أو فى الكفر فباستطاعة الإنسان أمام دعوة القرآن أن يبعد عن سماعها عوامل التأثير الخارجية عليه من عرف أو تقليد،أو اعتقاد سابق ، ولاشك أن فى إبعاد هذه العوامل تفتح إلى الاستجابة وقبول دعوته،لأنه طالما كانت دعوة القرآن بعيدة عن الحزبية والهوى ، فالعقل فى الانسان لا يرفضها إطلاقا) ونحشرهم على وجوههم يوم القيامة عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم ، كلما خبت زدناهم سعيراً(والذين بقوا فى الضلال والحيرة ولم يتحولوا إلى الإيمان سيكون شأنهم يوم القيامة : أنهم يجمعون على نحو ما كانوا عليه وأن يسمعوا ما يخالف اعتقادهم والمصير الذى ينتهون إليه بعد جمعهم هو نار جهنم . ونارها مستمرة دائبة ، كلما سكنت زادت اشتعالا من جديد) . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً ؟(وهذا هو المصير الذى ينتهون إليه ... هو جزاؤهم على كفرهم ، وبالأخص على إنكارهم البعث والحياة الأخروية وادعائهم : أن الناس إذا ماتوا وتحولوا إلى عظام صلبة وأجزاء صغيرة متناثرة لا يمكن أن تعود إليهم الحياة كما كانوا ، فالبعث أمر لا يصدق . وحياة الانسان لذلك مستمرة على هذه الدنيا . وهى الحياة الخالدة : تنتقل من جيل إلى جيل ، بدون نهاية) . أو لم يروا : أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم (ولكنهم فى إنكارهم للبعث

لا يرجعون بعقولهم وأبصارهم إلى هذا الكون وما فيه من سموات وأرض ، ويستخلصون من خلقه : أن الله الذى خلقه يقدر أن يعيد من جديد الحياة إلى الموتى ، لحظة أن يشاء . وإنما يتجاوزون الخلق العجيب لهذا الكون فتتجاوز أبصارهم وعقولهم ما ينطوى عليه من دليل على قدرة الخالق وعندئذ ينكرون البعث ، ويررن فى إعادة الحياة للموتى ادعاء لا يتحقق) وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً (ولذا فعندما أعطاهم الله حياتهم الدنيوية وجعلها فرصة للإيمان والتحول عن ماديتهم وجاهليتهم . وجعل يوم القيامة نهاية هذه الفرصة . كان أجلا محتوما لا شك فيه . ولكن ظلمهم لأنفسهم بالبقاء فى الضلال والحيرة حملهم على إنكار هذا اليوم والكفر بحياة ثانية أخرى للانسان . وإنكار البعث تكون ركيزة أساسية فى المادية أو الجاهلية بوجه عام . بالاضافة إلى إنكار القرآن . وإنكار الرسالة من الله للانسان) .

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

ومع هذه الادعاءات الثلاثة التى يدعيها المكيون الماديون :

التشكيك فى كون القرآن معجزة . .

وعدم توافق صفة الرسول مع البشرية . .

وإنكار البعث :

تذكر سورة الإسراء لهم الآن صفة من صفاتهم كماديين . .

تذكر إمساكهم وبخلهم بالمال : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الانفاق . وكان الانسان قتورا (فطلب من الرسول

عليه السلام أن يكشف لهم عما بنفوسهم من تعلقهم بالمال وحبهم له بحيث يجعلونه هدفاً فى حياتهم ، وليس وسيلة لمعيشتهم ، ومن ثم لا يعينون به مهما كثر لديهم غيرهم من أصحاب الحاجة . فهم بخلاء ، حتى لو ملكوا نعم الله كلها فى أرضه . وقد جاء فى شدة تعلقهم بالمال قوله تعالى فى سورة الفجر :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً » (١).

والطبيعة البشرية قبل تهذيبها وتحولها عن طريق الإيمان بالله إلى الاتجاه النفسانى فى العلاقات بين الناس : تميل إلى التقتير والبخل . وكأن الآية تقول لهم : بادعاءاتكم السابقة إزاء القرآن وإزاء الرسول لم تستخدموا منطق الانسان السليم . وفى علاقاتكم بغيركم لم تتحولوا إلى المستوى الانسانى . بل بقيتم أنانيين لا تعرفون سوى ذواتكم : فأنتم لا خير فيكم يرجى لأنفسكم حينئذ ولغيركم ، على السواء) .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

وتعود السورة لتستشهد من تاريخ البشرية وتاريخ الرسالة الإلهية على أن المعجزات والدلائل المادية التى يؤيد بها الله رسولا من رسله ليست العامل

(١) الفجر : ١٧ - ٢٠

الفاصل فى الاقناع وقبول الايمان برسالته . وإنما العامل الفاصل هو التخلى عن الحزبية والهوى عند سماع دعوة الرسالة والاحتكام فى شأنها إلى عقل الانسان ومنطقه المجرد . فتذكر الآيات التى جاء بها موسى إلى فرعون وقومه، وهى آيات عديدة . . هى آيات تسع أيده الله بها . ورغم وجودها معه فلم يستجب فرعون إلى دعوة موسى ، وأصر على تكذيبه : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات (وهى : خروج يده بيضاء من غير سوء . أى من غير مرض كالبرص : « **وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** » (١) ؛ : والعصا : « **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون** »(٢) ؛ : « **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** » (٣) ... والسنون ، ونقص الثمرات : « **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات** »(٤) . والطوفان والجراد، والقمل ، والضفادع ، والدم : « **فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل . والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** » (٥) « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إنى لأظنك يا موسى مسحوراً (وإن رد فرعون على موسى بادعاء أنه مجنون أو مسحور فى رسالته إليه : يدل أولا على عدم اقتناعه بالشواهد المادية التى جاءت لتأييده كرسول من عند الله ، ويدل ثانيا على أن الملك والافتتان به لم يدعا له فرصة يواجه فيها دعوة موسى ، وهو بمنطق إنسانى حر ، خال من التأثر بنزوة أو شهوة حكم ، وإذن : طلب المكيين من الرسول محمد عليه السلام : أن يأتى لهم بدل القرآن بآية مادية تدل

---

(١) النمل : ١٢ . (٢) الأعراف : ١١٧. (٣) الشعراء: ٦٣ .
(٤) الأعراف : ١٣٠. (٥) الأعراف : ١٣٣ .

على صدقه فى الرسالة ، لا يمثل الجدية فى الحوار. وإنما يعبر عن التحدى فقط ولذا لم يرسل الله مع رسوله عليه الصلاة والسلام آية مادية استجابة لطلبهم) .
قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً (ولم يكن جواب موسى على استهزاء فرعون به ووصفه إياه بالخلط فى التفكير إلا أن قرر له : أن تلك الآيات لم يأت هو بها من عند نفسه ، وإنما ساقها الله رب الكون كله على يديه حجة على رسالته ، ورفضك إياها لا يدل إلا على أنك غير أهل للخير .. على أنك « مثبوراً » وليس على أنها غير صالحة للإقناع) فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا (وكان رد الفعل عند فرعون أنه أراد أن يستأصل موسى ومن معه من بنى إسرائيل من الأرض بقتلهم جميعاً ، لأنه لم يعهد مثل هذه المواجهة من الملأ فى قومه ، ولأنه أيضاً خشى أن ينتشر الإيمان برسالة موسى بين سكان مصر ، وعندئذ تضار زعامته ، ويفقد عرشه . وكانت إرادة الله سابقة على إرادة فرعون ، فأنجى موسى ومن معه من بنى إسرائيل من تتبع فرعون وقومه ، وأغرق فرعون ورجاله فى البحر . ويقال : إن خروج موسى من مصر كان فى سنة ١٣٢٢ قبل الميلاد ، فى عهد رمسيس ، كما يقال : إنه خرج ومعه جثمان يوسف) وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض. فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً (وبعد إغراق فرعون ومن معه أمر الله موسى ومن تبعه من بنى إسرائيل بالاقامة فى أرض كنعان . . إلى أن يجمع بينهم وبين فرعون وقومه يوم القيامة ليحكم بينهم . وكانت نعمة إنجاء موسى ومن معه . ونعمة إسكانهم فى أرض كنعان من النعم العديدة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ولكنهم كفروا بها جميعا . وفى كفرهم بنعمة الإسكان فى أرض كنعان يحكى الله فى سورة البقره قوله تعالى مندداً بهم « **وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها**

وقثائها وفومها وعدسها وبصلها : قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصراً (ارحلوا من أرض كنعان إلى تلك الأرض التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب ، وتذبح أبناؤكم ، ويستحي فيها نساؤكم) فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباء وابغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون »(١) . . وهكذا : كفرهم بهداية الله ، وبنعمه عليهم واعتداؤهم بقتل الأنبياء التى أرسلت إليهم بغير الحق ، . . وعصيانهم ما أمروا به من ترك المادية والوثنية وعبادة الله وحده جلب عليهم غضب الله ، وقضى عليهم بالذلة والمسكنة ، وذلك بتشريدهم وتفريقهم جماعات جماعات بين الناس الى يوم البعث) .

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

ثم تعود السورة بعد ذلك الى القرآن فتؤكد حقيقتين بالنسبة له : تؤكد حقيقة أن نزوله من عند الله صدق ولا شك فيه .. وحقيقة أن ماسجل فيه صدق كذلك ، وأنه الحق فى ذاته : «وبالحق أنزلناه (أى أن إنزاله على الرسول محمد عليه السلام

---

(١) البقرة : ٦١ .

من عند الله حق ، فلا هو من تأليفه ، ولا من إملاء معلم عليه) وبالحق نزل (وكذلك ما نزل به من مبادىء ، وتوجيه ووصايا هو الحق فى ذاته ، مجردا عن كل شبهة من باطل أو حيرة أو ادعاء . ولذا فهو للناس جميعاً) وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا (وهذه حقيقة ثالثة بالإضافة إلى الحقيقتين السابقتين الخاصتين بالقرآن ، وهى أن رسالة الرسول عليه السلام هى فى الدعوة إلى القرآن ، وتبليغ ما جاء فيه للناس ، وليست فى فرضه عليهم. وإكراههم على قبوله . وفى تبليغه الدعوة يبشر من يؤمن بالاطمئنان النفسى فى حياته الدنيا ، وبالجزاء الأوفى فى الآخرة .. وينذر من يتحدى ويكفر بالضلال والحيرة فى حياته الأولى ... وبجهنم فى حياته الثانية بعد مماته وبعثه) .

وقرآنا فرقناه (أى جزأناه فى التنزيل . فلم ننزله دفعة واحدة وكنا نقدر على ذلك . ولكن جعلنا نزوله على مراحل وفترات ولذا استمر نزوله ثلاثا وعشرين سنة فى حياة الدعوة بمكة ، وفى حياة المؤمنين بالمدينة ، حتى فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة) . لتقرأه على الناس على مكث (والحكمة من هذا النزول المفرق فى هذه المدة الطويلة هى أن تيسر للرسول فى نقل الناس الذين أعلنوا إيمانهم بالله من وضع الجاهلية . . والمادية . . إلى وضع الإنسانية فى العلاقات بين بعضهم بعضاً على مهل ومكث ، طبقاً لتطور نفوسهم من مرحلة إلى أخرى حتى يتم نقلهم فعلا وعملا إلى وضع المؤمنين الصالحين . فالإيمان إذا كان المؤمن يعلن عنه بالشهادتين ابتداء ، فهو عملية نفسية تستغرق وقتاً طويلا فى حياة الإنسان المؤمن ، وتبتدىء من إعلان الايمان ثم تنتقل من حالة نفسية إلى حالة أخرى .. تفوقها إصراراً وتطبيقاً واتصالا بالله ، حتى يخشع قلب المؤمن لذكر الله وما نزل من الحق. وتفريق القرآن فى النزول إذن ليرسم المراحل فى انتقال الجاهلى أو المادى. إلى أن يكون مؤمناً : فهناك أولا التبغيض فى العادات والتقاليد والاعتقادات التى تمثل الجاهلية ، يصور مرحلية.. ثم الأمر باتباعها يصور المرحلة الأخيرة. وعندما تقول سورة المائدة — وهى السورة قبل الأخيرة فى نزول الوحى المدنى — « **اليوم أكملت لكم دينكم**) بنزول التوجيه لجميع مراحل

الإيمان) ... **وأتممت عليكم نعمتى** (بنقلكم إلى مستوى الإيمان التام) **ورضيت لكم الإسلام دينا** »(١) . (فإنها تعلن إتمام الوحى فيما يتعلق بخطوات الإيمان ، كما تعلن أن ما نزل من القرآن فى مكة والمدينة حتى هذه اللحظة يمثل المنهج القرآنى فى نقل الإنسان من جاهلى إلى مؤمن ، أو من مادى أنانى إلى إنسانى إسلامى . ولا شك أن الطاعة النفسية التى يتطلبها الإيمان تحتاج إلى وقت تتخلى فيه عما كان ، وتأخذ نفسها بما يجب أن يكون والتخلى .. والأخذ : عمليتان نفسيتان ينتقل الإنسان من إحداهما للأخرى بالترويض . وهنا كانت العبادات : العامل المساعد فى هذا الترويض ، بعد الارادة والتصميم . ولذا نرى القرآن يعقب فى آيات كثيرة بقوله : «إن كنتم مؤمنين » أى إن كنتم جادين فى الإيمان ، كما نراه يناشد المؤمنين التعجيل فى إتمام خطوات الإيمان فيقول مثلا فى سورة الحديد . « **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** »(٢) . فنزول القرآن مفرقاً ليعطى للطاعة النفسية عند المؤمن فرصة تتكون وتنمو فيها ، فى غير إكراه ، وحسب قانون التطور النفسى لدى الانسان) ونزلناه تنزيلا (ويؤكد بهذا التعبير ، مرة أخرى ، نزول القرآن مفرقاً للغرض الذى كشفت عنه الآية وهو قوله تعالى : «لتقرأه على الناس على مكث » فى الوقت نفسة يرد بتوضيح الهدف من نزوله مفرقاً على تحد آخر للشركين الماديين بمكة . وهو ذلك التحدى الذى يعبر عنه قول الله تعالى فى سورة الفرقان : « **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** »(٣) وتثبيت الفؤاد هنا ليس أكثر من الطاعة النفسية التى تنمو فى غير إكراه وحسب قانون التطور النفسى لدى الانسان) . قل آمنوا به أولا تؤمنوا (والآن بعد أن وضح بطلان ادعاءات المكيين الجاهليين — وهى مساوقة لادعاءات الماديين فى

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) الحديد : ١٦ .
(٣) الفرقان : ٣٢ .

كل عهد ، حتى فى الوقت الحاضر — يستوى أن يومنوا ، أو لايؤمنوا . لأن الحق فى ذاته لايضيره إنكار جاهلى له أو تحديه إياه) . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم ، يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً (ويكفيك أيها الرسول صلوات الله عليك للتدليل على صدق رسالتك وصدق ما أرسلت بة : أن الذين يعلمون رسالة الله من قبل، وهم بعض أهل الكتاب، إذا تلى عليهم القرآن صدقوا به وخضعوا لله سبحانه بسجودهم له معلنين عن عظمته ونفاذ وعده للبشرية برسالته ، وازدادوا خشوعاً له) .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

إزاء نعمة الله بالقرآن وبالرسالة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب السورة منه الآن بعد أن تأكد شأن القرآن ، وتأكد شأن الرسالة ، وبعد أن اتضح بطلان ادعاء زعماء مكة .. أن يكون مسلكه إزاء ربه على هذا النحو :

« قل ادعو الله ، أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعو فله الأسماء الحسنى (أولا : أن يتجه بدعائه إلى ربه بأى اسم من أسمائه : بالله .. أو بالرحمن ، أو بغير هذا وذاك . فله الأسماء الحسنى عديدة تستوى جميعها فى الحسن والتعبير عن الذات الإلهية) .

ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا (وثانياً فى المرحلة الحالية للدعوة إلى الرسالة بمكة . وهى مرحلة الضعف فى حياة المؤمنين برسالته — ينبغى أن تكون القراءة فى الصلاة بصوت معتدل ،

لا هو إلى الجهر .. ولا هو إلى الخفت ، حتى لايصل الأمر إلى الأعداء . فهم متأهبون فى كل لحظة للانقضاض على الرسول عليه السلام و المؤمنين معه).

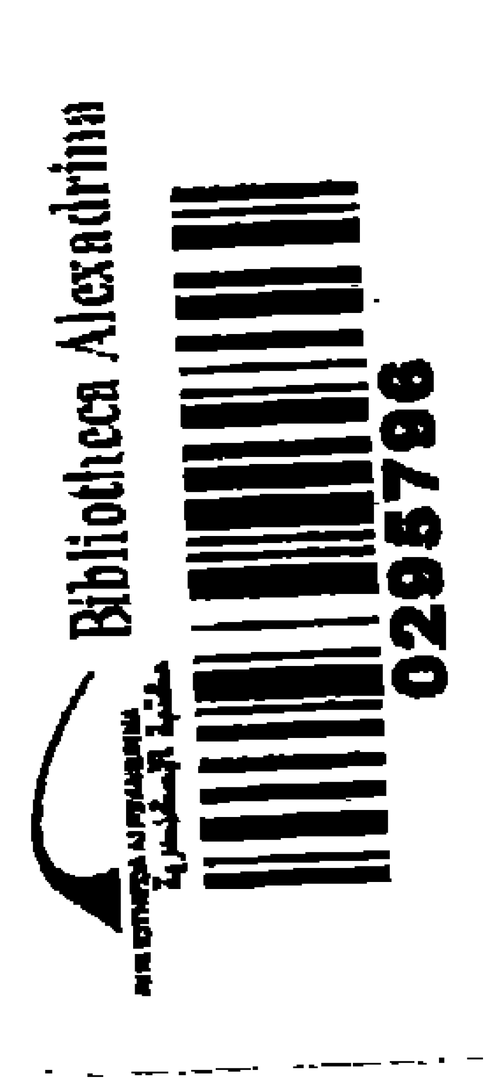
وقل الحمد لله (وثالثاً : أن يحمد الله على فضله ونعمائه عليه ويثنى عليه فى كل لحظة من لحظات حياته) الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك . ولم يكن له ولى من الذل (والله الذى له الحمد والثناء دائماً هو الواحد فى ألوهيته — هو الذى لم يكن له ولد من الملائكة أوسواهم كما يدعى المكيون.. وهو الذى ليس له ند ولاشريك فى هذا الوجود كله .. وهو العزيز بنفسه الذى لايصادق الذل أبدا) .

وكبره تكبيراً (ورابعاً : أن يعلن فى استمرار تعظيمه لله جل جلاله ، فى الصلاة ، أو فيما بعد الصلاة وقبلها . فوحدة الألوهية التى تستتبع نفى الشريك ، والند ، والولد عنه وتقتضى العزة والمنعة ، هى أساس الدعوة فى الرسالة ... وهى بالتالى محور الخصومة والجدل بين الرسول عليه السلام وزعماء قومه) .

* * *

رقم الايداع ٧٦/٤٦٤٧
الترقيم الدولى ٦ — ٣٣ — ٧٢٣٦ — ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) — القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩